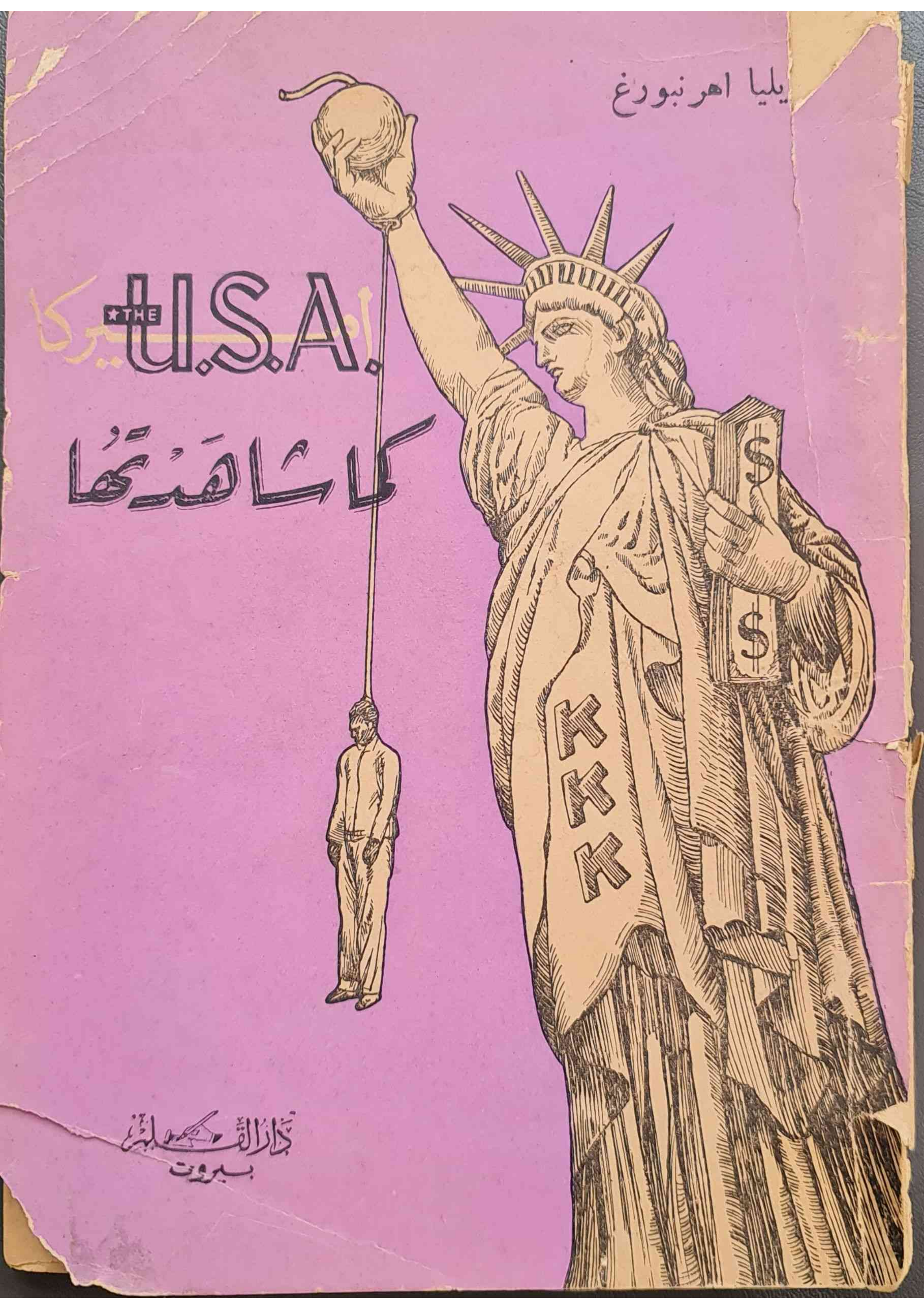

يليا اهرنبورغ
امريكا
THE U.S.A.
كما شاهدتها
$
$
KKK
دار القلم
بيروت

ايليا اهرنبورغ

U. S. A.

كما شاهدتها

تعريب

وصفي البني



بيروت

الفصل الاول

نحن في الطائرة «كونستيليشن» . اسباب الراحة متوفرة . مقاعد وثيرة مجهزة بالوسائد . الهواء مضبوط بشكل لا ينشأ معه اي ألم للاذان بسبب الارتفاع في الجو . ربطونا الى المقاعد بسيور ، وسلمونا كراساً فخماً مذكور فيه ، انه في حالة هبوط اضطراري الى البحر ، ينبغي خلع الاحذية والقفز في قارب منفوخ . بعد ان قرأت هذا ، قررت ان لا اكثر من الحركات التي لا فائدة منها . تركنا باريس ، في طقس جميل ، وذلك النهار من الربيع يشع ويتألق ، واشجار الكستناء مكسوة بالازهار . عند هبوط المساء كنا في ارلندا الشمالية ، بنباتها الشاحب وبريطانييها الصفر . أكلنا قليلاً وتابعنا طريقنا الى الغرب . مياه ، ما اكثر المياه .

قدمت لنا موظفة الطائرة «علكة» ، فرحنا نمضغها وادركني النعاس ... وبدا لي الليل ، مع ذلك ، طويلاً جداً . واخيراً هبطنا الارض . كانت الساعة السادسة صباحاً . الطقس بارد ، والظلام مخيم ، والثلج يتساقط ... انها جزيرة «الارض الجديدة» . نحن على مائدة الصباح . ابناء البلد يشربون البيرة ويتثاءبون . سألت : كم الساعة في «العالم الجديد» ؟ الوقت منتصف الليل . وتابعنا الطيران صوب الجنوب ، هذه المرة ، ليلة جديدة . فما استطعت العودة الى النوم . رحت أفكر ، آنذاك ، بما يفكر فيه جميع المسافرين ، في مثل هذه الحال : بنواحي العالم المختلفة المتنوعة . في الطائرة بعض الاميركيين . قبل ان نجتاز البحر المحيط ، كانت هيئتهم تبدو فرنسية حيناً ، وانكليزية حيناً آخر . . ولكني ارى انهم لا يشبهون احداً . الفجر . ومن تحت تبدو اول مدينة اميركية — بوسطن . يخيل

للمرء انها تقفز نحو الطائرة بناطحات السحاب . لم ار ، حتى اليوم ، مثيلاً لها رغم اني ضربت في اوروبا طولا وعرضاً . « العالم الجديد ! » ، قال هذا بكبرياء ، جار اميركي .

جاءتنا موظفة الطائرة بعصير البندورة، ومجموعة من الاسئلة . منها: «من اي عرق انت ؟ ابيض ام ملون؟». ان «العالم الجديد» ليتجلى جديداً حقاً ! قررت ان لا أجيب على اسئلة حمقاء ، ولقيت جزاء هذا القرار . فبينما كان رفاقنا في السفر يغادرون المطار ، كنا نحن لا نزال نعاني المصاعب في غرفة صغيرة ، حيث راح رجال الشرطة يحفرون أدمغتهم متساءلين : لماذا لا يريد ثلاثة من « الحمر » ان يقولوا هل هم « بيض » ام « ملونون » ؟

●

الفصل الثاني

غالباً ما يؤكد الاميركيون : « ان نيويورك ليست اميركا » . ان نيويورك الجبارة المتعددة الاجناس هي ، في نظر اهالي جاكسون او ناشفيل ، محطة او بؤرة سوء او ركام من المفاسد الرهيبة. غير اني شهدتها بعد اوروبا مباشرة ، فوجدت انها زبدة اميركا . الشوارع جميعها مرقمة . وفي كل زاوية من كل شارع «مخزن ادوية» (دراغ-ستور). والاهالي جميعاً متشابهون ويبدو عليهم انهم مستعجلون. لقد أصبت بالدوار لكثرة الانوار والضجيج والاعلانات . ترى اين يركضون جميعاً ؟ دخلت احد مخازن الادوية . انها نوع من المخازن الكبيرة ، يمكن ان تبتاع منها سكاير او لعب اطفال ، كما يمكن شراء خاتم او حقيبة . وتستطيع ايضاً

ان تتناول فيها شراباً وطعاماً . وهناك شبان اميركيون يرتدون صدارات ملونة ، حمراء كالحناء او زرقاء فاتحة ، جالسون فوق مقاعد صغيرة مرتفعة، يلتهمون بسرعة «سندويشاً» لذيذ المنظر ، الا ان خبزه الشديد البياض ، باهت الطعم كأنه محشو بالقطن .

لقد ساءني كل هذا . غير اني ، حين تذكرت عدة كتب اوروبية كانت تلعن اميركا منذ السندويش الاول ، خجلت من نفسي : ان ادراك الاشياء اصعب من الذم والقدح .

قضيت الليلة الاولى في فندق وسط بالقرب من برودواي . كنت أتأمل فأرى الاعلانات المضيئة من الطابق الخامس عشر او من الطابق العشرين . لم اعد اذكر ذلك . كانت جميع الاعلانات تطري مشروبات كريهة الطعم مع الزنجبيل او بدونه ، وتطنب بمدح بعض السكاير او ركوات القهوة . اما احرف الاعلانات فكانت من جميع الالوان ارجوانية ، وخضراء معتمة او بنفسجية . ولقد كانت شبيهة بالشهب العابرة . وكانت تسمع في معابر الفندق اصوات النزلاء السكارى المبحوحة . وكان ضجيج برودواي، كالحرارة الشديدة ، يتعالى ويحول دون الرقاد . وقد شهدت على طاولة السرير مجلداً ضخما ، فخيل الي دليل الهاتف . وكان ذلك المجلد ، التوراة، وفي احدى صفحاته المطوية من طرفها حكاية برج بابل . فاي مجنون هذا الذي كان يقرأ تلك الحكاية القديمة في ضجيج برودواي الذي لا ينقطع ابداً . ومع ذلك فان نيويورك ، بما فيها من ناطحات السحاب ، تذكر بشكل غريب بحكاية ذلك البرج غير الكامل . صحيح ان بناة نيويورك قد وجدوا لغة مشتركة : لغة الجوع ، والدولار ، والثروة . ولكنهم طبعوا هذه اللغة بالطابع المتنوع ، طابع الثلاثين بلداً من بلادهم الاصلية في العالم القديم . فليست نيويورك ، في الواقع ، مدينة واحدة . انها عشرات من المدن .

والناس لا يخرجون ابداً من «مدينتهم». ثمة مدينة زنجية، ومدينة يهودية، وايطالية، وصينية، وبورتوريكية، وغيرها في المدينة الايطالية غسيل معلق، ورائحة ثوم، وانغام مندولينا... في الخمارات الصغيرة يأكلون المعكرونة ويغنون ويتنهـــدون. وفي الحي اليهودي يبيعون الفودكا الروسية، ويشربون الشاي، ويتناقشون. الشيوخ يلعنون الملحدين، والشباب يدرسون ماركس. الحي الفرنسي يتميز بمآكـــله الراقية وجرائده، الديغولية والمناهضة للديغولية، ومقاهيه.

ومع ان هناك نحواً من عشر لغات مختلفة، فان القوم في استعجال، وقد تعلموا جميعاً لغة الحديد النيويوركية. في الشارع الخامس مخازن رائعة مدهشة. تستطيع ان ترى فيه زوجة «ملك البرادات» وزوجة «ملك العلكة»، ترفلان في افراء، وتغمرهما الاحجار الكريمة. اما في حي هارلم للزنوج، فقد رأيت المشهد التالي: سود نصف عراة ينتظرون في مكتب يحمل لافتة كتب عليها: «مستشفى». قلت في نفسي، لعلها صيدلية مجانية. وكان فيها من الدائرة الصحية، انها «مستشفى للقمصان»: فان الفقراء المعدمين الذين لا يملكون قمصاناً للتبديـل، ينتظرون حتى يتم ترقيع اسمالهم. وفي هذا الحي «بيوت للرهونات» يضع فيها الناس لحفاً وسراويل وطناجر مقابل بضعة فلوس..

في نيويورك متاحف مدهشة. رأيت في متحف الفن المعاصر معرضاً للفنان شاغال وآخر عن الفن البولينيزي. انه قصر حقيقي للفن العصري وكل مخزن في الشارع الخامس والسبعين معرض للوحات الفنية، تباع فيه روائع الفن الفرنسي. اما في الحي الصيني فان الحلاقين يعلقون صورة عين مع الاعلان التالي: «هنا تزال في الحال اثار اللكمات على العيون» فبعد كل شجار يعالج المصابون انفسهم هناك.

الاخضر قليل جداً : ليس ثمة غير « السنترال - بارك » حتى لقد ينسى الانسان وجود الاشجار . الا انك ، في لحظة قصيرة ، تجد نفسك قبالة البحر المحيط ومسابحه العديدة ، حيث تستحم جماعات يوم الاحد ، وتعرض اجسادها لحرارة الشمس لتصبح بلون البرونز هناك شوارع تذكر باوروبا . فالشارع الثالث ، مثلاً ، مع « المترو » الهوائي ، يشبه جادة غرونيل بباريس . المدينة وسخة . في كل مكان غبار وزوابع من ورق الصحف وورق الاعلانات وعلب السكاير الفارغة . وتتصبب اجسام الناس عرقاً اسود من اثر الدخان الا ان ثيابهم نظيفة . فالمغاسل والمصابغ تشتغل ليل نهار . سيارات الاجرة ذات الوان صارخة كي يتمكن المارة من الاهتداء اليها في الحال . هناك عدد ضخم منها . فاذا جاء المساء تعذر السير بالسيارات ، وصار من الخير السير على الاقدام في حالة الاستعجال

ثمة نفق عظيم تحت نهر هدسون ، يربط نيويورك بضاحيتها الكائنة في ولاية نيوجرزي . يجتاز هذا النفق سيل لا ينقطع من السيارات . وعند الدخول اليه يدفع رسم عبور - تسديداً لنفقات البناء - لان المكلفين رفضوا دفع تكاليف نفق قد لا يستخدمونه (واضيف هنا ان هؤلاء المكلفين انفسهم يدفعون دون ان ينبسو ببنت شفة ، تكاليف القنابل الذرية التي قد تهبط غداً فوق رؤوسهم) . وبطريق السيارات الجوي يمكن الوصول الى قلب المدينة دون اي عائق .

في العالم مدن رائعة : باريس ، لينغراد ، فلورانسا ... اما نيويورك فلست ادري اهي جميله ام قبيحة لنقل انها جميلة وقبيحة في وقت معاً . ان جمالها لا يمت بشيء الى مفهومنا عن التناسق والانسجام . فاذا اخذت اية ناطحة سحاب على حدة فهي قبيحة : الهندسة مبتذلة ، كأنها معرض عام ، من فن غوطي مزيف ... وتشويه لهندسة عصر النهضة ، وفن

شرقي مزيف ... فان المنزل ذا الطبقات الخمس ، حين يتحول الى منزل من خمسين طبقة ، وحين تكون ناطحة السحاب هذه غير منفردة بل محاطة بناطحات اخرى ، فان ذلك ليغدو شيئاً مؤثراً جليلا. ان في هذه الركام من الاسمنت المسلح لشيئاً من العظمة والفجيعة . لقد استطاع الفن هنا ان يعبر عما في الرأسمالية الاستعمارية من شره وحمى وتوثب وبعد عن الانسانية طالما كنت اتأمل فارى المدينة من سطح احد الجسور ، فاتذكر مايا كوفسكي . كان يحب جسر برو كلن ، وقد اهداه اشعاراً رائعة . كان ذلك منذ عشرين عاماً . اما اليوم فان جسر برو كلن ومنظره يبدوان كأنهما من عهد فتوة نيويورك . ان جسر واشنطن يحدث في انفسنا تأثيراً اكبر . لقد كبرت المدينة ارتفاعاً . وهذه العشرون عاماً قد احدثت كثيراً من التغييرات ، وليس ذلك في نيويورك وحدها . ان مايا كوفسكي ، باعتباره شاعراً ، كان سابقاً لعصره وكان طبيعياً في عهده الاعجاب بالتكنيك الاميركي . ولقد اعجب به ، في الغالب ، قبل ذهابه الى الولايات المتحدة . ذلك لانه حين اتصل بالعالم الجديد عن كثب ، صرح قائلا : « ليست مهمتنا اطراء التكنيك ، بل ان نخضعه لخير الانسانية . » لقد ادرك خطر نيويورك ، وأدرك حسنها العاني.

ان نيويورك جميلة عند رؤيتها من الطائرة او من سطح أعلى ناطحات السحاب ، تلك التي يملكها روكفلر . في المساء يشعر المرء انه في اعماق واد سحيق في سفح جبل تشع فيه عشرات الالوف من النيران الصغيرة . جمال يبعث الاسى !

لقد سمى المهندس «لو كوربوزييه» المدينة ، « زينة فاجعة » . ربما كان ينبغي تسميتها «فاجعة مزينة».

ان نيويورك جبارة الشدقين ، متعددة الالوان ، بعيدة عن الانسانية.

وهي ليست بعاصمة دولة ، بل هي اذا شئت ، أقرب لان تكون مركز قضاء . ولكنها في الوقت نفسه ، العاصمة الحقيقية لاميركا . ان نيويورك لا واشنطن ، هي دماغ البلاد . هنا مقر لجـان الاحزاب ، وادارات تحرير اكبر الصحف ومجالس ادارة التروستات . هنا يسمع صوت الشعب ، من وقت لآخر حين تتدفق الجماهير الى ساحة «ماديسون – سكوير» العظيمة الاتساع ، فيغطي هدير اصواتهـا ضجيج الجوق الموسيقي ، وضميرها ينتظر جواباً .

ليست نيويورك كبيرة بناطحات السحاب وحسب ، انها كبيرة ايضاً بسوداويتها ، وغضبها ، وأحلامها الشرهة ، وعملها ، وعنائها الشديد.

●

الفصل الثالث

ليس الناس مستعجلين في برودواي وحدها . انهم مستعجلون نهاراً وليلا في نيويورك كلها وفي جميع جادات وشوارع المدن الاميركية الاخرى : الناس جميعاً ، رجالاً ونساء واطفالاً ، يسرعون . وفي المدن قليل من الشيوخ . لعلهم يسرعون بالموت ايضاً .

كنت أحسب ، قبـل رؤية اميركا ، ان الاميركيين أسرع من الاوروبيين . لقد كنت على ضلال . فهناك المعاملات القرطاسية نفسها ، والاجوبة نفسها : «انتظر» ، «سنرى» ، الانتظار في الاروقة ، والفوضى . المشاريع تهيأ ببطء وتنفذ ببـطء ايضاً . الانتاج يسرع عند الوصول الى الانتاج الكثيف . ولكن الاميركيين مستعجلون أبـداً حتى حين لا

يعملون شيئاً، وحين يستريحون . ذلك هو اسلوب حياتهم . لقد حاول بعض الفرنسيين ان يتأكدوا من حقيقة هـذا الاسلوب . فعين أحدهم للتحقيق في كيفية استخدام الوقت لدى اميركي وسط ومستعجل . فرآه يخرج من بيته في الساعة العاشرة من الصباح ويندفع لشراء جريدة. ودون ان يفتح الجريدة يشتري سيكاراً وهو يسرع في الجري . ويتابع سيره، على النسق ذاته ، ليشق لنفسه طريقاً الى المترو ، ثم يدخل احدى ناطحات السحاب وهو في سرعته نفسها . كان المصعد على وشك الصعود ، فرقى الاميركي مئة متر ووصل أخيراً الى الطابق السادس والثلاثين . ففتح باب مكتبه بسرعة . وكان الباب زجاجياً . فرؤي يعلق معطفه بعصبية ، ثم يجلس في مقعده ، فيشعل سيكاره ، وينشر جريدته ويغفو . لم يكن ينتظره اي عمل. لقد كان مستعجلا لانه لا يعرف ان لا يستعجل .

الفصل الرابع

ثمة حدود وهمية: عند اجتياز الحدود الفرنسية البلجيكية او السويدية النروجية (في القطار ، او مشياً على الاقدام) لا يبدو اي تبدل اما في اميركا ، فان الاوروبي تأخذه الدهشة . حتى الاشجار غير الاشجار . ففي الحدائق نباتات خطرة . يكفي ان تمسها حتى تتقرح يدك . ان الطبيعة لا تقل بشيء عن ناطحات السحاب فما رأيت في اي مكان آخر عواصف في مثل تلك الشدة ، ولا امطاراً في مثل تلك الغزارة . في الصيف تزداد شدة الحر ، ولكن تلك الحرارة ليست حرارة اوروبا .

انها حرارة رطبة ، كما في جوف بيت من زجاج لتربية النباتات . فالناس يغتسلون ويبدلون ثيابهم عدة مرات في اليوم . والعواصف تهاجم المدن وتقلب المارة . والفواكه نفسها غير الفواكه : فهناك تفـــاح هائل ، وكمثري جبارة ، وزيتون اضخم من خوخنا . ولكن هـذه الفواكه الضخمة ، لا طعم لها ولا رائحة . اقد اخذ هنري والاس «فريزاً» روسياً فزرعه في حديقته . وكانت النتيجة : ثماراً ضخمة لا عبير لها . وثمة فروق اخرى . اذا اجاد الخطيب واعجب سامعيه ، صفروا له . لقد امتعض الاميركيون حين قلت لهم انهم ، اثناء الكلام ، لا يشيرون بايديهم ، بل بارجلهم . انهم لا يلاحظون ذلك . ان الارجل الاميركية كثيرة التعابير ، ولها جميع الحقوق . انهم يرفعونها عالياً جداً ، ويضعونها فوق الكراسي ، وفوق المكاتب . وعندما يدخل الاميركي في نقاش تساهم رجلاه في المناقشة . وفي الصيف تخلع النساء احذيتهن ، في الغالب من الاحيان ، ويرحن يتكلمن ويشرن باصابع اقدامهن المصبوغة الاظافر بلون الدم المتجمد .

الناس هناك يحبون حياة البداوة . فلديهم هوس الحركة . وحتى حين يكونون في غرفة يغيرون مجلسهم باستمرار . ويستقر احدهم في بيت ، ثم لا يلبث ان يبحث عن آخر . فيسعى لفرشه باقصى ما يمكن من التواضع ، ولكنه في حالة تبديل طارىء يغادر البيت تاركاً الفرش . ان الاميركيين يهاجرون باختيارهم من بلد الى آخر ، ومن ولاية الى اخرى . وهم يعتبرون من الامور الطريفة الفذة ان يصر المرء على الحياة في المكان الذي ولد فيه .

فاي شبه بين هـــذا وتقاليد انكلترا العجوز . ان « الوحدة الانكلوسكسونية » التي تقرع الصحف اذاننا بالحديث عنها قائمة على ما

شئت من اسس ، عدا اساس وحدة الطباع . ان الانكليزي مهذب ، بارد الطبع ، يحب ان ينهي ايام حياته في منزل جده . ويجعل بذلته من القماش المتين ويقول : « اني لست من الغنى بحيث اسمح لنفسي بشراء اشياء رخيصة » . فاذا لم يلبس هذه البدلة حتى الممات ، فليكن ذلك حتى الازمة العالمية الاتية على الاقل .

اما الاميركي فلا يحب الا الجديد . انه لا يوصي على بذلته على القياس . ما الفائدة ؟ ففي اي مخزن من المخازن يستطيع ان يجد بذلة متقنة الخياطة ورخيصة الثمن . فيلبسها وقتا ما ثم يهجرها . ويشتري قميصاً جميل المنظر ، ولكنه من نوع مشبوه الى درجة انه لا يستحق عناء غسله . انه لا يرغب ان تكون لديه ذكريات ، ونادراً ما يتساءل عن المستقبل . هو يعيش في الحاضر . ان الانكليز يزدرون الاميركيين بعض الازدراء . فهم يعتبرونهم أناساً سيئي التربية . وقد سمعت في لندن الحكاية التالية : سأل أميركي انكليزياً عن مكان «الخلاء» بعبارة قليلة الاناقة . فأجابه الانكليزي : في هذا الممشى ، الباب الثاني على اليمين ، مكتوب عليه «للجنتلمان»... ومع ذلك ، أدخل . والاميركيون ، من جهتهم ، ينظرون الى الانكليزي نظرتهم الى عم عجوز من ذوي الالقاب ، مفلس ، يزعج الناس بمظاهر العظمة الا ان الاميركي ، في اعماق نفسه ، يحسد الانكليزي على هذه المظاهر وهو شديد الغيظ منها . وهو ، فوق ذلك ، يخشى ان يتغلب عليه هذا العم الغني بالتجارب .

•

الفصل الخامس

هل يعيش الاميركيون جيداً . أما انا فأرى انهم يعيشون حياة مريحة ولكنها كريهة . ان التكنيك هناك مدهش . فالبلاد تجتاز عصر بحبوحة ورخاء ، وأسباب الرفاه متوفرة الى درجة جعلتني أضل فيها . هناك كثير من الازرار ، ومفاتيح الكهرباء ، والروافع . وهناك ألوف من الاختراعات الصغيرة ، والاكتشافات اليومية التي تجعل حياة الانسان بسيطة سهلة . ان الحياة المنزلية مترفة ، ولكن ربة البيت الاميركية تقضي قليلا من الوقت في اعمالها المنزلية . فالطبخ وأجهزة التبريد ، وتبديل الهواء ، والغسيل ، تدار جميعاً بالكهرباء . كل اوروبي يعلم كم يضيع من الوقت في مكتب ايداع امتعة السفر . ان هذا المحذور غير موجود، في اميركا . ففي المحطات خزائن خاصة . تضع قطعة من النقد في ثقب فتجد المفتاح . فتودع امتعتك ، ومتى شئت تأخذها . فما تضيع لحظة من الوقت .

أردت ان أتلفن لصديقي، المخرج السينمائي ميليستون. كان في كاليفورنيا، وانا في نيويورك. فسألت: «أينبغي ان أطلب المخابرة قبل حين؟» فابتسمت عاملة التلفون ، وقالت : « ولكني أستطيع ان أصلك بالمستر ميليستون في الحال!». فالمخابرات الخارجية تجري بمثل سرعة المخابرات الداخلية.

ان الطائرة تزاحم القطار مزاحمة جدية . ففي الطائرات تتوفر اسباب الراحة ، ويستمر نقل المسافرين نهاراً وليلاً . تصعد الطائرة من نيويورك مساء ، وعند الصباح تحط على ساحل المحيط الهادي . وفي الفندق تعطي أمتعتك للغسيل، فترد اليك في اليوم التالي، مطوقة بشريط . طعام الصباح

يقدم على مائدة متنقلة . اما القهوة والعجة والمشروبات فيخصص لها ما يشبه الغرفة الحارة . وبالعكس فان البرتقال الهندي يقدم في قدح مع الثلج . وفي الفندق ، والقطارات ، وفي كل مكان ، قطع من الصابون ملفوفة في غلاف من ورق .

الصيف في اميركا شديد الحرارة ، لا يطاق. الهواء مكيف في المكاتب والفنادق والمطاعم ودور السينما . اي انه هواء مبرد اصطناعياً والحرارة في الشوارع استوائية ، اما داخل الابنية فالحرارة معتدلة . من المؤكد ان ليس هناك جنة ونعيم ، ما دمت ، حين تخرج الى الشارع ، تدخل في أتون لاهب . ولكن الوسائل الفنية تحد من المنغصات . فهناك آلات حلاقة بالكهرباء ، واجهزة راديو يمكن ان تعمل لاقطة ومرسلة، وساعات لا تحتاج الى ربط ، واقلام حبر في غنى عن الحبر ، وبوسعي أن أضيف عدداً آخر من المدهشات . . .

وثمة مصاعد سريعة ترقى الى الطابق الاربعين دون توقف . ان هذا كله رائع ، فاذا قلت ان الاميركيين يعيشون في رفاه ورخاء ، ولكن عيشهم كريه ، فذلك لان التكنيك يخنقهم . ان في ديترويت عدداً ضخماً من السيارات حتى لا تكاد ترى ماراً في شارع . المدينة كلها مرائب ومعامل . حتى الفندق الذي نزلت فيه يدعى «كاديلاك»، باسم السيارة المعروفة. كانت أروقته ملأى باعلانات مصانع السيارات المختلفة. في كل مكان تجد العبارات التي تمنع وقف السيارات في الشوارع: ورغم المنع تقف في الشوارع الالوف من السيارات . زرت كثيراً من المعامل الاوروبية ، ولكن معامل ديترويت قد أدهشتني . ان مختلف اجزاء محرك السيارة تتلاحم بشكل فني دقيق ، ولكنه سريع ، واذا أمامك سيارة جديدة . سيارات شهيرة ! انك لترى مئات والوف منها تنتظر

مالكها بصبر وهدوء. ان السيارة ، في نظر الاميركي الوسط ، حاجة ضرورية من الدرجة الاولى. منذ بضع سنين كان الاميركي يبدل سيارته كل عامين او ثلاثة . اما اليوم فينبغي له ، للحصول على سيارة جديدة ان يسجل اسمه ، وينتظر دوره . ورغم كل شيء ، فان « مقبرة السيارات » تلتهم مئات السيارات التي يمكن ان تعمل في اوروبا عامين او ثلاثة اعوام أخرى. اما الطرق فرائعة. انها جميعاً وافرة الاتساع. ان غرام الاميركيين بالطرق المتقنة الرحبة لا حدود له . ان ما يصرف على الطرق في ولاية فرجينيا اكثر مما يصرف على المدارس . فلست أرى منظراً اميركياً دون مكمله : محطات البنزين . انها هياكل حقيقية ، من الطراز الغوطي حيناً ، ومن الطراز الصيني حيناً آخر . وغالباً ما يكون فيها مطاعم ومراقص او مخازن. (ففي وسعك ان ترقص بانتظار تصليح في سيارتك). بل ان فيها مكتبات تبيع الروايات البوليسية . واثناء الوقت الذي يضع فيه أحد المستخدمين البنزين في السيارة ، يقوم مستخدم آخر بتنظيفها . ولست تتعرض لخطر البقاء دون مأوى حتى وأنت في الطريق. ففي كل مكان فنادق صغرى، او غرف يؤجرها السكان باسعار زهيدة وفي أماكن كثيرة تجد « بيوتاً للسواح » ، مع حمام ومطبخ . ان المزايا الايجابية في الاميركي تبدو لك في الطرق ، على الاغلب. فتجد سائق السيارة يسرع الى نجدة سائق آخر في حالة الخطر . وعند الضرورة يصلح له السيارة . وهو لا يرفض أبداً نقل أحد المشاة اذا أشار له هذا طالباً الركوب. ان الاميركيين ، مع ما فيهم من بعض الخشونة ورغم كونهم خصوصاً رجال اعمال ، يتحلون بصفات الفروسية منذ ان يمسكوا بمقود السيارة . ليست السيارة أداة نقل وحسب ، انها الهوى الاول للاميركي . انه يلاطفها ويطلق عليها اسماً محبباً ، ويخدمها ويغدو عبداً لها. وقفنا بسيارتنا ذات يوم امام مطعم . فأردت ان أنزل ، فأمسك بي مضيفي : لقد أتونا

بالطعام الى السيارة . هناك دور سينما معدة لاصحاب السيارات خصوصاً، فترى الفيلم دون ان تغادر سيارتك . اما في «السنترال - بارك» فللسيارة اسم آخر: «عش الاحباب» يقضي الاميركيون ايام الاعياد في السيارات، ويحسبون ، بكبرياء ، عدد الكيلومترات التي اجتازوها . واثناء ذلك ، لم يروا شيئاً أبداً ، لا مناظر طبيعية ، ولا مشاهد . لقد كانوا مستعجلين. كانوا مستعجلين لافناء السيارة العتيقة ، مستعجلين لجمع دولارات أخرى، لاستبدالها بسيارة جديدة يأكلون فيها طعاماً محفوظاً . كانوا مستعجلين لايصال سيارتهم الى «مقبرة السيارات»، بانتظار ذهابهم ، هم ايضاً ، بعد السيارة الخامسة او السادسة ، الى مقبرة أخرى صغيرة ، عـادية ذات ممرات ، وقبور مرقمة .

●

الفصل السادس

يروق لرجال الفكر المعادين للاتحاد السوفياتي ان يصوروا بلادنا ثكنة ليس للناس فيها اية فردية . ولسوف يضحك القارىء السوفياتي من كل قلبه حين يسمع بدهشة الصحافيين الاميركيين الذين قالوا ، اذ رأوا الجنرال غالاكيتونوف، وقسطنطين سيمونوف، وكاتب هذه السطور،: « ولكنهم لا يشبهون بعضهم بعضاً أبداً !» . الواقع ان اي بلد في العالم لم يبلغ درجة الولايات المتحدة في اتقان النمطية . لقد عرضت على الاميركيين صور مختلف المدن ، فلم يوفقوا حتى الى معرفة المدن التي هم منها. أجل، الى هذه الدرجة تتشابه تلك المدن في وحدة انماطها . لقد زرت كثيراً من هـذه المدن ، وليس في وسعي الآن ان أتذكر الفرق بين جاكسون وناشفيل ، ولا الفرق بين شارع فيلادلفيا ، وشارع آخر في ديترويت .

في جميع المدن شارع رئيسي ، ودور للسينما ، ومخازن لـ « المودة » ، وفنادق ، ومطاعم ، واعلانات مضيئة عن شراب الـ « كوكا - كولا » .

وللاشياء المصنوعة نسق واحد ايضاً ، كالمدن: نمط واحد من ربطات العنق ونمط واحد من المقاعد ، ونمط واحد من الكؤوس . ليس قولي هذا طعناً ،بل العكس .فبفضل الانتاج الكثيف ،حقاً ،تمكن الاميركيون من رفع مستوى حياتهم . وعندي ان في وسعنا ان نتعلم من الاميركيين فن صناعة الاحذية والطناجر ، صناعة جيدة وسريعة .

فاذا رأيت في احد المخازن شيئاً خارجاً عن النسق الرائج ، من ربطة عنق جميلة ، او قطعة قماش متينة ، او تحفة طريفة ، فـــلا بد ان تسمع البائع يتمتم بوقار ، معلناً : «اجنبي...»

ان جميع بضائع الترف تكاد تكون مستوردة . ولكني حين أقف امام هذه المسألة : « كيف تنظم حياة مئة وخمسين مليوناً من السكان ؟» اتجه ، لا الى الحرفيين الاوروبيين الحاذقين ، بل الى الآلات الاميركية . انهم يصنعون هنا اشياء وسطاً ، الا انها وافرة الكمية .

ان رواية كرواية «الحرب والسلم» خير من الف رواية من الوزن الوسط ولكن وجود مليون زوج «بسطار» خير من مئة زوج من احذية الترف .

صحيح ان هذه النمطية مما يبعث بعض الضجر . البيوت نفسهـــا ، والرجال في البذلات نفسها ، والنساء كذلك ... ومع ذلك ، فاني غير متفق مع الاخصائيين الاوروبيين في علم الجمال ، الذين يسخرون من النمطية الاميركية . فاذا كانت جميع تلك البذلات متشابهة ، بقي ان تكون في متناول جميع الناس . لقد رأيت عاملاً يشتري بذلة ثم يقول للبائع : « يمكنك ان تحتفظ بالعتيقة » .

قضيت في نيويورك ثلاثة اشهر . عند وصولي اليها ، كانوا يشرعون ببناء ناطحة سحاب بالقرب من الفندق الذي نزلت فيه . وحين غـادرت

المدينة كانت الناطحة توشك ان تتم .

هي ذي محاسن الانتاج النمطي . وتلك هي متطلبات العصر ايضاً .

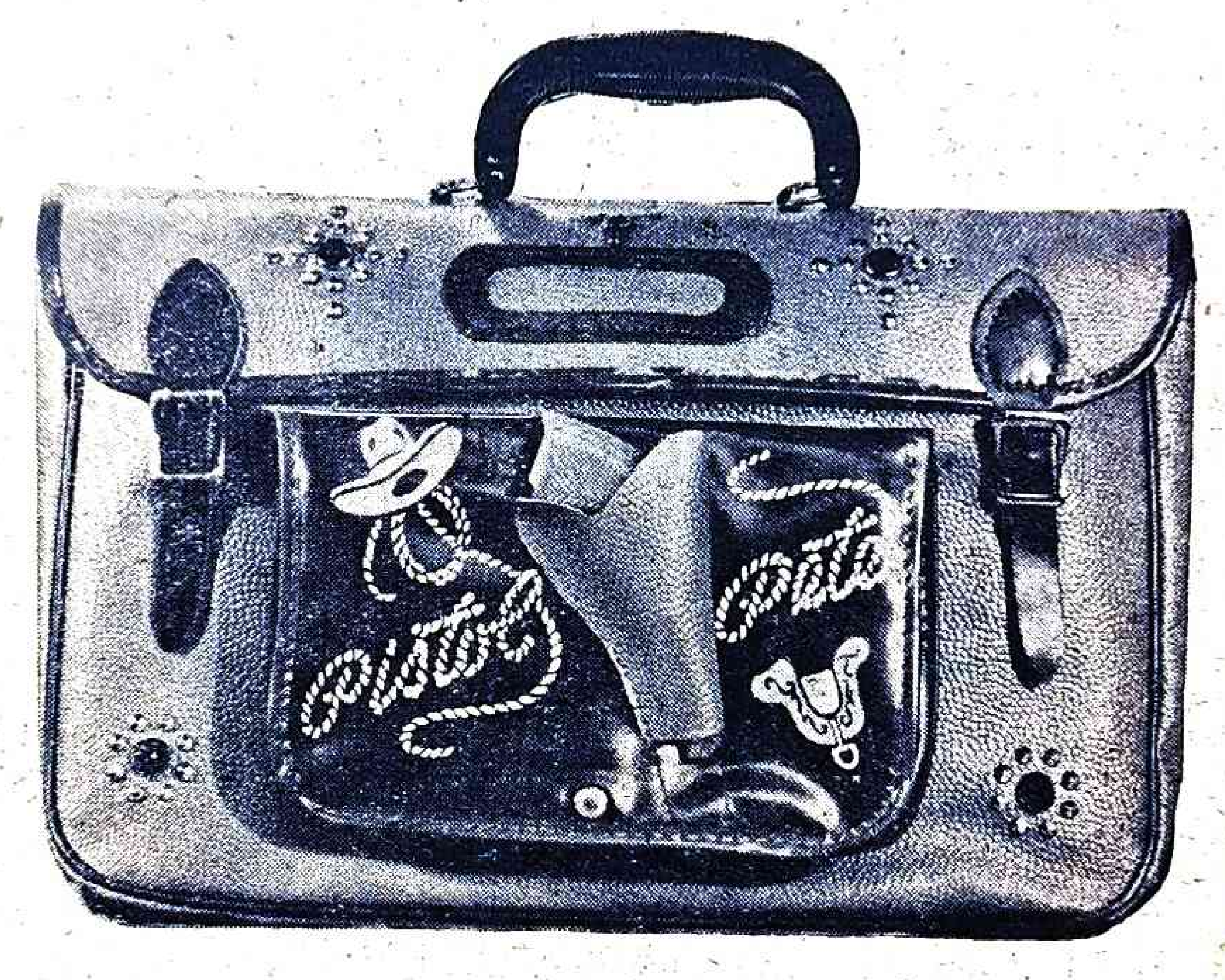
•

الفصل السابع

اني لاقبل ، بكل رضى ، ان تكون البنطلونات ، على نمط واحد ، ولكني اظل قلقاً امام نمطية الفكر . كثيراً ما يروق للاميركيين التحدث عن حريتهم الفردية . ولكن عقلياتهم ، واذواقهم ، ومشاعرهم ، وبالتالي ، اعمالهم مطبوعـــة بروح المطابقة . فالسينما ، مثلاً ، تخلق نموذجاً للجمال النسائي . وتساهم الصحافة بذلك ، فتنقل الى قرائها جميع التفاصيل المتصلة بـ «المرأة المثالية» – مطمح الجميع . وعلى اساس هذه البيانات ، تجد ملايين الاميركيات ، لا لنسخ تقاطيع النجمة ، بل لتقليد حركاتها ايضاً . واما الرجال فانهم يقعون في هواها دون ان يشعروا بانهم مـأخوذون باقوال جريدتهم . ما من نشرات ذات رقم وسط . فالنسخ المطبوعة اما ان تكون ذات رقم طخم جداً او رقم ضئيل . ان هـذا لا يفسر بكون الاميركي الوسط لا يختار مطالعاته ، انها مرجعـــه الى اختيار مختلف الاندية التي تعين الكتاب الجدير بالمطالعة

للاميركي كثير من الهواية في الميدان العملي . انه يحسن اختراع طراز جديد من المكاوي ، وايجاد عبارات لترويج العلكة . امـــا في الميدان الروحي فان هوايته ، على العكس ، تبدو فقيرة . منذ خمسة عشر عاماً جمعت من احدى المجلات السينمائية الاميركية عناوين بعض الافلام . كانت تعرض يومذاك في دور السينما : «غرام على الشاطىء» ، «غرام في

احدى «حسنات» الافلام الاميركية !!...



لقد كثرت افلام رعاة البقر الاميركية وكثر الاقبال عليها لدرجة ان كل اميركي ومتأمرك يحلم بهذه الحياة .

وهذه المحفظة المدرسية ترينا الانحطاط الفكري لدى شعوب الولايات المتحدة بكل وضوح نتيجة لتلك الافلام المبتذلة.

محفظة كتب – وفرد بطرس – وقبعة الكوي بوي – وسرج الخيل - وحبل رعاة البقر ، وفوق المكان المخصص لكتابة الاسم رأس ثور وفي الداخل الكتب المدرسية الزاخرة بقصص رعاة البقر .

عرضت هذه المحفظة في اسواق بيروت اخيراً...

رحماك يا رب !!..

الثلج»،«غرام هندية»،«الغرام النوري»، «غرام الشقي»،«غرام كازانوفا»، «الغرام وحده»، «الغرام الدامي»، غرام فني الاول»، «غرام شوبان الاخير»، «الغرام في الصحراء»، «الغرام في مأزق» الخ ...

يعرض الآن في برودواي فلم عادي: «فتى برودواي». وبعدشهرين ترى افلامـاً جديدة مرادفة : «ابن برودواي» ، «كان ذلك يجري في برودواي»، «شجرة برودواي». وما كاد يعرض فيلم بعنوان «الطريق نحو الشمس» حتى يتبعه سريعاً «صراع على الشمس» و«دم على الشمس». ولن يكون عجيباً ان نرى بعد فيلم «دم على القمر»الخ، الخ...

ان حياة الاميركي الوسط العاطفية تحددهـــا أدق تحديد، السينما والروايات والتمثيليات المذاعة في الراديو. تلك حياة فقيرة. ثمة شخص يدعى المستر انتوني، سائق تاكسي سابقاً، يعده ملايين الاميركيين نظيراً لبترارك، وشكسبير وتولستوي ... في كل اسبوع يذيع بالراديو دروساً في الحب، ويجيب على اسئلة الازواج الغيورين او الخطيبات الخجولات، ويلقن مونولوجات غرامية، ويزدي بنصائح حول اسلوب السلوك في الحب. والاميركيون يتعلمون هذا كله كما يتعلمون استعمال آلة للغسل.

ليس اشد الامور هولا ان الباعة في محلات «وولورث» يرتدون قمصاناً واحدة ويقدمون لصديقاتهم جوارب من طراز واحد. ولكن المهول هو انهم، اثناء عملهم هذا، يرددون جميعاً العبارات نفسها، وان تلك الصديقات يوجهن اليهم الابتسامات النمطية نفسهـا. ومن المرعب انك اذ تسأل اميركياً عن رأيه في فيلم «فتى برودواي» او في فرنسا، تصل، في الوقت نفسه، الى رأي ملايين الاميركيين.

الفصل الثامن

في اميركا عدد كبير من المذاهب الدينية المرخص بها ، غير ان اكثر العبادات انتشاراً هي عبادة الدولار . والدولار لا يمثل النقد وحسب ، بل يمثل الاله ورخاء المعيشة وسراً من الاسرار . حين قدم لي ناقد فني رساماً شاباً ذكر لي اسمه بصورة غير واضحة ، ولكنه اضاف وهو يشد العبارات شداً : «ثلاثة آلاف دولار». واذا شئت ان تلاطف احداً ، قلت له : « انك ، في هذا الصباح ، جميل كمليون من الدولارات » .
كنت مدعواً الى الغداء لدى جمعية تقدمية . الطعام عادي ، خشاف مايونيز وقطع كبيرة من لحم الدجاج - يخيل الى المرء انها فرس ماء مجنح - «وبوظة». واما الشراب فماء بارد. كان الضيوف المرموقون جالسين على السدة . وحين فرغ الجميع من التهام «البوظة»، بدأ الرئيس في القاء خطاب بعنوان: «ما يمتاز بـه السلم على الحرب». ولم يكن ذلك خطاباً بالمعنى المفهوم للخطب ، انما كان قراءة لتقرير مضروب على الآلة الكاتبة ومهيأ من قبل ومثل ذلك فعل الاربعة الخطباء الآخرون . وانشدت مغنية قصيدة عاطفية، ثم توج ذلك كله بصعود قص اختصاصي بجمع الاعانات الى السدة.
ان الناس جميعاً يعلمون ان الكهنة ابطال في هذا الميدان، وانهم متفوقون في ذلك على المهندسين او الصحفيين او الاطباء . وهم في الغالب، مولعون بهذا النوع من العمل الذي يدر عليهم موارد اضافية . انهم يجمعون الاعانات، كيفما اتفق، سواء لمصلحة جامعة خاصة ام لايتام رجال الشرطة.
اما في مساء ذلك اليوم فقد كان الكاهن يجمع التبرعات لمصلحة «الدفاع عن السلم». كان يتكلم بحرارة ويرافق كلامه كثير من الحركات والاشارات. وكانت بين يديه قائمة باسم الاشخاص الذين وافقوا مسبقاً على التبرع بخمسمئة او الف دولار . ولقد صرخ فجأة ، بدهشة مصنوعة : « ان سخاء

المستر سميث يهزني. لقد ابلغوني انه اكتتب بالف دولار». فتعالى التصفيق. ونهض المستر سميث يرد التحية. وتوالت التبرعات الزهيدة، واستمر الشبان المكلفون بجمع هذه التبرعات، يتنقلون بين الطاولات. عندما قلت لهم ان الناس في بلادنا يتبرعون بحياتهم، للدفاع عن السلم، وهم بذلك اكثر تواضعاً من هؤلاء الحضور المتبرعين بدولاراتهم، - عندما قلت لهم ذلك، لم يفهموا كلامي. سألني احد المدعوين، بكل لطف، اذا لم اكن مريضاً، انه بصفته «تقدمياً»، مستعد للكفر بكل شيء، الا بالدولارات.

وثمة عبادة اخرى شائعة، غير عبادة الدولار، هي عبادة النجاح. انهم يعجبون الاعجاب نفسه بنجاح عضو في مجلس الشيوخ او نجم سينمائي او ملاكم او غانغستر. انهم بعكس البورجوازيين الاوروبيين، لا يهتمون بالماضي ابداً. فاذا ارتقى مفلس او فرد من الدرك الاسفل، تلقوه كفاتح من الفاتحين.

اعلن المعرف في احد المقاصف: « بيننا الآن كاتب روسي شهير. » تصفيق. واستمر يقول: «وبيننا ايضاً ضيوف مرموقون آخرون - الشيخ الفلاني، والمغنية الفلانية، ومستر دايفيس.» ما هي امجاد المستر دايفيس؟ انه تاجر ادوات كهربائية، مكنته الحرب من زيادة ثروته اضعافاً ثلاثة. هتافات... ومن الصفات المميزة ايضاً حب الارقام القياسية. قال احد الخطباء من اعلى المنبر: ان يشوع هو اعظم العظماء، فبوقفه الشمس، ضرب الرقم القياسي لجميع المعجزات.»

•

الفصل التاسع

نصف اعمدة الجرائد، وثلاثة ارباعها احياناً، مخصصة للاعلانات.

والاعلان يشمل كل شيء: مراكز الاستحمام، والجزر، والكتب، والاسهم والمناظر الطبيعية في «اوتريلو»، والادوات الصحية. ان انوار الاعلانات وحدها تمكن، في الليل، من رؤية الاشياء بوضوح . وتشاهدصورة مرشح لمجلس الشيوخ الى جوار تنين برتقالي اللون، اعلاناً عن نوع من «النقانق». ومن النادر الاشادة بالبرنامج الانتخابي للمرشح او بمبادئه السياسية. الا انهم يبرزون حياته العائلية الفاضلة ، ومزاياه كأب لاربع ملائكة صغار ، ويذكرون ايضاً انه قد انشأ نفسه ، وان البراد في بيته من انتاج ما بعد الحرب ، وانه يدخن سكاير «شيسترفيلد»، وانه صالح كالاب نويل، ومما يذكر ايضاً ، وليس في هذا ما يشين ، انه مقتصد . وليس اعضاء مجلس الشيوخ وحدهم بحاجة الى الاعلان . ان الاله نفسه لا يخرج عن القاعدة . فلقد شهدت في ضواحي اورليان الجديدة اعلانات مضيئة تتضمن نصوصاً من التوراة . وفي اعداد الصحف الاقليمية، الصادرة ايام السبت، عمودان، على الاقل ، مخصصان للاعلان، من مختلف المذاهب والكنائس التي تحاول جلب المؤمنين .

من هذه الاعلانات اذكر ما يلي، دون انتقاء: «يرافق الصلاة موسيقى رائعة . وسائل الراحة مؤمنة . طعام وشراب.» وفي اعلان آخر: «بعد الصلاة يعرض فيلم ملون يصور صعود الرسل تصويراً صادقاً.»

دعانا الى الغداء مدير احدى كبريات الصحف الاميركية . وباعتزاز وفخر عرض علينا غرفة عمله الضخمة المزدانة بعدة صور ، بينها صورة موسوليني مع عبارة اهداء رقيقة . جلسنا على المائدة، وعند افتتاح المائدة قدموا لنا ، بدل «الكوكتيل» او الويسكي ، ادعية مطبوعة على ورقة في اعلاها صورة هيئة تحرير الجريدة ، فكانت تذكاراً واعلاناً في وقت معاً .

للاعلان ملوكه ، وهو لا يهمل اي نوع من الانواع . ان دوغلاس

لاي يحيط الجميع علماً بان اعلانه المضيء في الشارع الثاني والاربعين ، مركب من اكبر الحروف في العالم . كل حرف خمسون قدماً ـ بارتفاع بناء بخمسة طوابق ـ . ويشغل الاعلان بمجموعه مساحة قدرها الفا قدم مربع ، ويبلغ وزنه اربعين طناً .

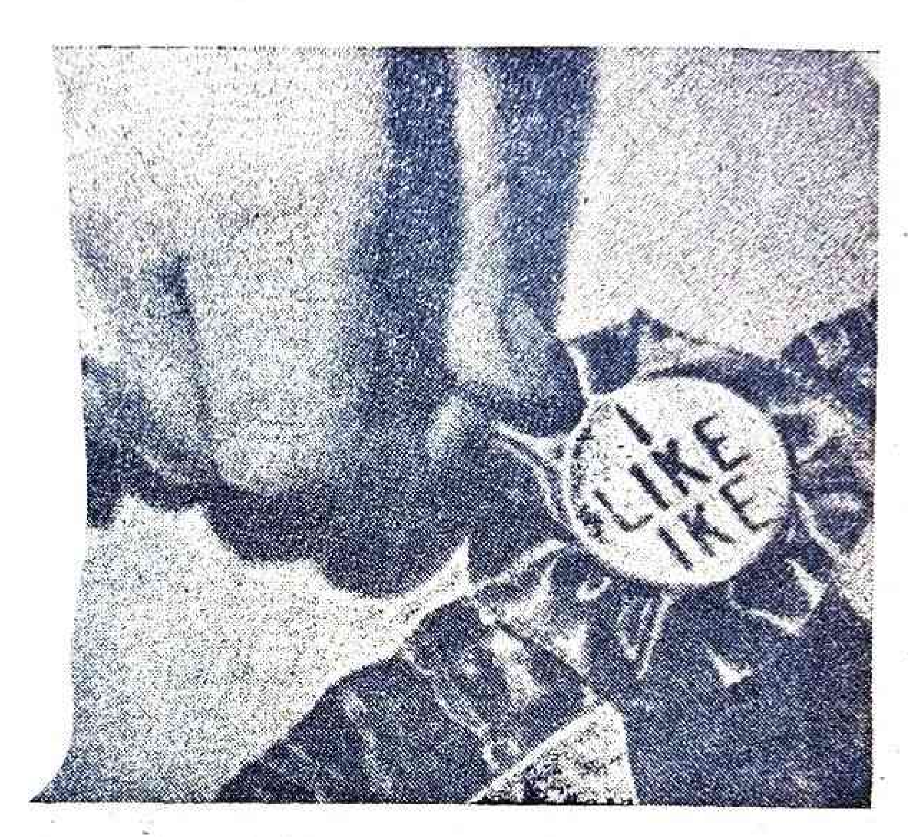
وكذلك شأن الراديو : ففى منتصف عزف سمفوني ، تحاط علماً بان هذا العزف يقدم اليك من المؤسسة التي تبيع افضل المسهلات .

وكثيراً ما يستنجد الاعلان بافضل المشاعر الانسانية ... مثلاً : «ساعدوا اوروبا المخربة» او «ساعدوا مواطنيكم البائسين» . وقد نشرت هذه النداءات مؤسسة لبيع الاحجار الكريمة . . .

رأيت في كثير من المدن الاميركية ، الاعلان التالي : « خمسمئة مليون من الناس جائعون . اقتصدوا . هينز والسبعة والخمسين نوعاً من انواع العصير . »

ان مؤسسة هينز تصنع الكونسروة . وهي فخورة اعظم الفخر بالسبعة والخمسين نوعاً من انواع العصير التي تنتجها . اعترف باني ما كنت لادرك الصلة بين التضامن الانساني وصنع الكونسروة . ولقد ابلغت شكوكي الى رئيس غرفة تجارة مدينة جاكسون ، فادهشته جهالتي ، فقال : « كل اعلان مصدر نفع لهينز . ولكنه ، في الوقت نفسه ، يؤدي عملاً من اعمال الخير . ان العبارة نفسها ، لو وقعها ترومان او رجل سياسي آخر ، لما كانت موضع اعتبار ، اما مؤسسة هينز فهي معروفة بكونها مؤسسة جدية واهلاً للثقة ، ومنذ ان يعلن هينز ان الصينيين يموتون جوعاً ، فذلك يعني ان تلك هي الحقيقة »

●



الاعلان يشمل كل شيء ، حتى سيقان الراقصات

الفصل العاشر

الاميركيون يعبدون الاندية . ليس الانتساب الى ناد ضرورياً للتاجر وحسب ، بل هو ضروري للمثقف الوسط ايضاً . ففي عكس هذه الحال لا يكون موضعاً لحسن الاعتبار . وعلاوة على ذلك، تفيد الاندية في ايجاد «شغل». وكل يوم يتلاقون فيها على مآدب يتحدثون فيها بشؤون الاعمال. ويقام مرة في كل عام حفلة عشاء يدعى اليها الاعضاء مع زوجاتهم. للنوادي اسماء مختلفة : الروتاري ، الاسود ، الوعول ، المتفائلون ..

كنت في حفلة غداء في نادي الاسود في احدى مدن الجنوب. وكان

الحفل مؤلفاً من تجـــار معتبرين ، وكل واحد منهم يحمل بطاقة تبين نوع النشاط الذي كان يقوم بــه ، استقبلهم الرئيس صائحا : «مرحبا ، يا اسود » فنهضوا وردوا جميعا بصوت واحد : « اوو ! اوو ! اوو » — تقليداً لزئير الاسود. وبعد ذلك قدم لهم عضوين جديدين: «ها هما اسدان جديدان . بم تريدان ان تسميا بيننا؟» وكان احدهما رجلاً حزينا فاختار كنية «السعيد»، وفضل الثاني ان يدعى «الرشيق». وانتهى الاحتفال .

كان هناك ايضا ، كالمعتاد ، مدعو — مقرر . وكان هذا استاذاً في الاقتصاد. فكشف لـ«الاسود»عن اخطاء البيت الابيض .بدأ بالطعن بموقف واشنطن من التجارة . « ان الحكومة ، بتشجيعها المؤسسات التعاونية ، توجه الى المبادرة الفردية ضربة قاضية . فاذا ما استمر هذا فاننا واصلون قريبا الى البربرية الاوروبية القبيحة ، اي الى الاشتراكية ! » فزأر « الاسود » بامتعاض ، ثم انتقلوا الى المساومات التجارية .

في اميركا ٣٥٠ ناديا لـ«المتفائلين». وفي بعض المدن يمرح «المتفائلون» مثلما يزأر «الاسود». مم يتكون «تفاؤل» اعضاء النادي؟ فكان الجواب: «اننا نجهد لرؤية المستقبل بلون زاه . وعدا ذلك نقوم بتربية احــدى اليتيمات». نظم اتحاد نوادي «المتفائلين» «اسبوع التفاؤل»، فتلقى جميع «المتفائلين»، وكذلك بعض المتشائمين، شرحا لفلسفة «التفاؤل» ، للمستر لارسون . وبين هذه التعاليم نجد مـا يلي : « اعتبر نجاح جارك كأنه نجاحك»، «خل اصدقاءك يعتقدون بانهم يمثلون شيئاً ما » ، « انس الماضي التعيس، واحصر فكرك في المستقبل السعيد» . وهناك ايضاً نواد اكثر اختصاصاً ، مثل نادي «اصدقاء الماعز في سان فرناندو». ومعلوم ان بعض الماعز قد هلك اثناء تجارب القنبلة الذرية في بيكيني . فكان ان قرر اعضاء النادي المذكور جعل هذا اليوم يوم حداد ، فخنقوا الاعلام ، واقاموا

قداساً دينياً . اجل ، ان لكل فرد ان يتسلى كما يشتهي . ولكن من الحق ان الحكم على المستوى الثقافي لامة من الامم، لا يكون بالنظر الى نجاحاتها التكنيكية وحسب ، بل الى اشكال التسلية فيها ايضاً .

الاميركيون يحسنون كسب المال ، الا انهم لم يتعلموا بعد كيفية انفاقه . وما هم ببخلاء ، حاشاهم . انهم ينفقون بسرعة وحرارة ، ولكن ينقصهم التذوق . وهم في عملهم اكثر حذقاً ومهارة مما هم في لهوهم . لقد صدمتني بلاهة النظارة في دور السينما : فبينا تراهم يرنق النوم في عيونهم، اذا بهم يقهقهون فجأة ، قهقهة ميكانيكية .

يدعو شاب فتاة الى السينما . وبعد انتهاء الفيلم يقودها الى عتبة منزلها . اما الفتاة فتكرر العبارة التي تعلمتها ، دون تبديل : « تستطيع الآن ان تقبلني ، والى اللقاء » .

اعترف لي اميركي بقوله: «لا شك ان لنا اخلاقاً متصلبة. ومن حسن الحظ اننا نلينها بالوسكي». والاميركيون، في الحقيقة، يتناولون الكثير من الشراب . هم يشربون لينسوا المحرمات . فلا تمر ساعتان على اجتماع للشباب حتى يصبحوا جميعاً سكارى ، والفتيات في الدرجة الاولى .

يشتري الاميركيون الجرائد لما فيها من حكايات بلهاء، تعرض بشكل رسوم متعددة الالوان . ويجلب « الاعلان – المضاعف » ، المصنوع من الانابيب الزجاجية الكهربائية، ملايين من المتسكعين. وتدر الربح معجزة ميكانيكية تتنبأ بحظك في الشغل وخيباتك في الحب. واذا احدثت مشاجرة في الشارع انفجرت الجموع ضاحكة .

يبدو الناس، من بعيد، فرحين، ولكنك حين تقترب منهم تستبين عناءهم: وسوداويتهم، السوداوية الاميركية الثقيلة التي تنضح عرقاً .

●

الفصل الحادي عشر

يؤكد لك الاميركي الوسط ، في مدينة الوسط ، انه يتمتع باكبر قسط من الحرية في العالم . وفي رأيه ان الدولة لا تملك حق التدخل في حياة المواطنين . ولذلك فهو من انصار المبادرة الفردية ان كلمة «اشتراكي» - دون ان تكون ثمة حاجة لذكر كلمة «شيوعي» - تجعله يخرج عن طوره . ومنذ وقت غير بعيد اقام اميركي دعوى قدح وذم ضد جار نعته بانه «اشتراكي» - وقد حكم على «القادح» بجزاء نقدي .

ان مراكز توليد الكهرباء ملك لشركات خاصة ، وكل مشروع لجعل هذه المراكز ملكا للدولة او للبلديات يعتبر انتهاكا للحرية الفردية ، رغم ان الاميركي يدفع ثمن الكهرباء للمؤسسات الخاصة اغلى ثلاث مرات .

زرت السد الجبار في وادي تنيسي . لقد أمن المرحوم روزفلت ، بهذا المشروع ، الكهرباء لسبع ولايات من ولايات الجنوب . اما الصحف فقد قالت في مهاجمته : « اننا لا نريد ان ندفع الضرائب في سبيل مشاريع حمقاء » . ان مركز توليد الكهرباء يشتغل الآن ، وقد ارتفع مستوى الحياة ، ولكن الصحف مستمرة في تذمرها والقراء السذج يرددون كالجوقة : « انظروا اين تنفق اموالنا ! » . ان السد يدر الربح ، ولكن المكلفين لا يعلمون عنه شيئا ، لان الصحف العاملة في خدمة تروستات الكهرباء ترفض نشر البيانات الحكومية عن تكاليف البناء ودخل مركز التوليد .

وكذلك الغاز والاقنية والطرقات - كلها خاصة . للذهاب من جاكسون الى لويزيانا ينبغي اجتياز جسر يصل بين الولايتين . وهذا الجسر ملك لشركة خاصة - وقد لزمنا ان ندفع رسما قدره دولار ونصف . ان

الاميركيين يتأوهون ، ويدفعون ، ويقولون ، بفخر واعتزاز : « ان الدولة في بلادنا لا تتدخل في الشؤون الخاصة . » ومع ذلك فان الدولة، ولنقل بعض الدول ، لا عمل لها غير التدخل في الحياة الخاصة لمواطنيها . ففي وسع الشرطة ان تدخل غرفة الفندق في اية ساعة من ساعات الليل، وان تطلب شهادات الزواج اذا ما رأت في الغرفة رجلًا وامرأة . لقد كان الفندق الذي نزلت فيه مسرحـــا لمشهد مضحك طريف . اعتقلت الشرطة عاشقين لم يكونا يحملا شهادة زواج . وفي الواقع كان الشاب والفتاة زوجين حقا وصدقا . وفي النتيجـــة : اقاما دعوى تحقير ضد صاحب الفندق .

في سبيل الحصول على زواج سريع ، ينبغي الانتقال من ولايـــة تنيسي الى ولاية الاباما المجاورة . وقد رأيت عند حدود هـذه الولاية اعلانات مغرية :« تعالوا من هنا ، اني ازوج سريعا ورخيصا » ،« زواج صاعق مقابل اربع دولارات».

الطلاق في نيويورك كثير الصعوبة ، ينبغي له شهود من كل نوع ، واضاعة الوقت والسمعة الطيبة في المحاكم ... ولكن ليس ثمة ما يمنعك من الذهاب الى ولاية نيفادا : حيث الطلاق سريع ، ورخيص نسبياً . لقد غنيت مدن هذه الولاية . فهي غاصة بـ « السواح » ، والفنادق تكاد تطفح بالنزلاء،الى درجة ان المطلقين الذين لم يناموا معاً منذ سنين عديدة، يضطرون للمبيت في غرفة واحدة ، لفقدان الامكنة الفارغة .

ويسود في كثير من الولايات النظام الجاف او نصف الجاف . ان بيع الخمر او الويسكي ممنوع في ولاية الميسيسبي. فيذهب الميسيسبيون الظامئون الى ولاية لويزيانا المجاورة . رأيت كثيراً من الحانات ، ومن بينها واحدة على لافتتها هذه العبارة البليغة : « الفرصة الاخيرة » أن

الشرب في واشنطن مباح ، ولكنه مباح في حالة الجلوس فقط.

كنت في عربة المطعم في القطار ، ارشف كأساً من الويسكي. فجاء الغلام فجأة وتناول قدحي ليأخـــذه ، واوضح لي السبب قائلًا اننا قد دخلنا ولاية جافة. وسنتجاوز هذه الولاية بعد ساعتين، فيعاد الي قدحي.

ويجري تدخل الدولة ، لا في ميدان البطن والقلب وحسب ، بل في ميدان الدماغ ايضاً فقد اكد لي اساتذة جامعة ولاية تينيسي ان قوانين البلاد تعارض في تدريس نظرية التطور، وان هذا يضطر اساتذة البيولوجيا للاكتفاء بحكاية آدم وحواء . تلك هي حريتهم!... ان الدولة لا تتدخل حين تنهب التروستات الناس، ولكن انتباهها منصرف الى الشراب الذي تتناوله ، والمرأة التي تقبلها ، والافكار التي تدور في رأسك .

•

الفصل الثاني عشر

ان تاريخ الولايات المتحدة لا يتألف من عصور ، فهي جـــديدة . والناس يعيشون في الحاضر . بين جريدة الصباح وجريدة المساء ينقضي عهد من التاريخ ، وهم ، في الغالب ، لا يذكرون ، عند الصباح ، ما اثار مشاعرهم في السهرة ...

قالت لي سيدة : « سوف لا تقرأ هذه الرواية . انها ليست جديدة لقد صدرت منذ عامين ! »

هنا يشعر الاوروبيون بوجود نواقص ... ولكن مـا الذي ينقص اميركا ؟ تنقصها الاحجار القديمة، ينقصها الماضي الذي لا يلاحظ في اوروبا، ولكنه يساعد على الحياة وعلى التفكير . ولذلك كان طبيعياً حقاً ان

يحيط الاميركيون الآثار النادرة لماضيهم القريب ، بخشوع وحب ، سواء أكانت املاك واشنطن ، ام بيت الشاعر لونغفيللو ، ام حانة في اورليان الجديدة . ان اقدم ناحية في اميركا تدعى « انكلترا الجديدة ». يقول الاميركيون بكبرياء : « نحن هنا في مقاطعة انكليزية » ويبتسم الاوروبي . انها اميركا نفسها دائماً . كانت اورليان الجديدة ، في الماضي، تابعة لفرنسا . وتجد فيها اليوم ايضاً فرنسيين من مواليد البلاد يتكلمون نوعاً من الفرنسية المسيخة . وثمة مطاعم عرفت ان تحتفظ بتقاليد المطبخ الفرنسي الراقية . بل ان هناك حياً ترجع منازله الى القرن الثامن عشر ، ولا تزال ازقته الضيقة تحمل اسماء فرنسية . ان لهذه المنازل القديمة في اميركا طابعاً انيساً . وحين ابصرتها ، اقسمت ، برغمي ، على الولاء لاوروبا .

ان اورليان الجديدة هي ، في نظر الاميركيين ، من قبيل بومبي ، بلد يحج اليه . فكل بيت في هذه الاحياء القديمة ، دكان لبائع آثار ، او حانة ذات طراز خاص . مررت من هناك في يوم لاهب الحرارة (مدار السرطان غير بعيد من هناك) وقد قيض لي ان ارى مشهداً شديد الفظاعة : اشعلت النار في مدفئة ، داخل احدى الحانات ، من اجل خلق « جو القرن الثامن عشر » . وقد جلس الى جانب النار اميركيون يتصبب العرق من اجسادهم ، ويشربون الماء المثلج - يريدون ان يقضوا ، ولو بضع لحظات ، في بيت قديم ، كان فيه مدفئة تنشر الدخان مكان المدفئة الكهربائية .

ليس يمكن فهم الاميركيين اذا لم نتذكر عمر بلادهم . انهم كالاطفال ، طوع الفطرة ، تتجلى فيهم الصراحة والفضول والضجيج . اتفق لي ان ادخل في محادثة مع عالم من اكبر علماء عصرنا الحاضر ، هو العلامة اينشتين . عرضت عليه مقالا في احدى الصحف الاميركية ، يعتبر اعادة

تعمير ستالينغراد ضرباً من «الاستعمار الاحمر» . فاجابني قائلاً : « منذ وقت غير بعيد كانت كلمة «ستالينغراد» مبعثاً للحماسة . اما الآن فقد نسي القراء اي شيء كانت ستالينغراد . هنا ، ينسون بسرعة » . واستمر في حديثه ، فوصف لي عادات قبيلة افريقية . ان افراد هذه العشيرة يطلقون على اطفالهم اسماء ، مثل «غصن النحل» ، « جبل » ، «الفجر» ، « صقر » ... وبعد الموت يصبح الاسم من المحرمات ، ويصبح من الواجب تغيير اسماء الاشياء التي كان الفرد يحمل اسمها بديهي ان هذه القبيلة لا يمكن ان يكون لها تاريخ ، ولا تقاليد ، ولا اساطير ...

●

الفصل الثالث عشر

خلق الاميركيون ، في فترة قصيرة من الزمان تكنيكاً رائعاً . فحين ينظر الاميركي الوسط الى المعامل ، والى جسور نيويورك ، والى المطاعم الاوتوماتيكية ، وآلات الحلاقة الكهربائية ، يميل الى الاعتقاد بان الثقافة الانسانية كلها قد تمركزت في الولايات المتحدة .

قدم لي صحفي من جاكسون ، الفكرة التالية : « روما قذرة وقبيحة ، ليس فيها من شيء يُرى : ولا ناطحة سحاب واحدة ، «مخازن الادوية» سيئة ، وفي دور السينما افلام عتيقة . بعد ان رأيت روما ، بدت لي جاكسون من العواصم » . كيف السبيل الى افهام هذا الرجل ان الكنائس الكبيرة القديمة ، او قصور عصر النهضة ، اجمل من ناطحات السحاب في المدينة التي ولد فيها ؟ وكيف السبيل الى افهامه ان ثمة نقوشاً من الموزاييك البيزنطي وصوراً لروفائيل ، عدا «مخازن الادوية» التي يمكن

ان تشتري منها اقلام حبر من احدث طراز ، وتؤكل فيها «نقانق» متبلة بعصير من السبعة والخمسين التي ينتجها هينز ؟

ان الاميركيين هم ابداً منكرون لاوروبا . في الماضي كان لديهم شيء من الاعتبار لاوروبا . اما اليوم فهم يستخفون بها . انه نوع من الازدراء المشوب بتلك الشفقة التي تتكون نحو شخص انهارت ثروته . وقد قال محام : « كفانا مساعدة للاوروبيين المغفلين » - ورأى آخر من النمط نفسه : « الاوروبيون يتقاتلون، اما نحن فنضطر الى تحريرهم اولا ، ثم الى تموينهم »...

ان تاريخ وجغرافية العالم القديم يظلان مفاهيم غامضة في رأس الاميركي الوسط . وقد صرح لي المحامي نفسه ، الذي - لا يريد - مساعدة - الاوروبيين - المغفلين - ، قائلًا : « ان اتراك بلغاريا اسوأ من اتراك تركيا . ولما دحضت كلامه مبيناً له ان ليس في بلغاريا اتراك ، اجابني : ولكن البلغاريين هم اتراك ! »

ويرى صحافي آخر ان بخارست وبودابست مدينة واحدة « انه اسم واحد ، ولكنه يلفظ بصورة مختلفة . »

سألت تلاميذ في ولاية ميسيسيبي اذا كان في وسع احدهم ان يذكر لي اسم مدينة في الاتحاد السوفياتي ، ففكروا طويلًا ولم يجدوا شيئاً .

وفي اورليان الجديدة ، رغبت في التعرف الى سيدة مبجلة ، هي استاذة في علم الاجتماع . وضعونا على المائدة جنباً الى جنب . وفي احدى اللحظات التفتت نحوي وقالت لي : « لقد قرأت جميع كتبك » ، ثم سألتني بسذاجة : « قل لي ، هل انت « احمر » ام ابيض ؟ » ، فاجبت بخشونة ، غير مكترث بما يصيب اعصابها : «احمر» . فاضطربت ، وبعد ان فكرت برهة وجيزة ، عرضت علي عصير البندورة ، انتاج هينز ،

قائلة : « كل شيء اليوم احمر ، على شرفك! » . . .

كان وضع الجنود الاميركيين في فرنسا مثيراً الى درجة اضطرت معها هيئة اركان الحرب الى نشر كراس بينت فيه ان الفرنسيين لا يستحقون مثل هذا الاحتقار ، من قبل الاميركيين. يورد هذا الكراس بضع آراء للجنود الاميركيين في الفرنسيين ، ولئن كان يمثل دفاعاً سخيفاً عن فرنسا ، فانه ، بالعكس ، شاهد على العماوة والغرور الاميركيين. اذكر من ذلك ما يلي ، دون اختيار : « لقد انقذنا الفرنسيين مرتين خلال عشرين عاماً » ، « اننا نقدم لهم سيارات ، وعربات للقطارات ، وتموينا - فما الذي فعلوه لنا ؟ » ، « الفرنسيون شعب متأخر » ، « ان الخيال ينقص اكلة الضفادع هؤلاء » ، « ماذا قدموا للعالم » ، « الفرنسيون يرتدون ثياباً خلقة ، للمترو رائحة ثوم ، الفرنسيون لا يحبوننا » ، « الالمان ليسوا من هذا النمط - انهم نظفاء ، واكثر تنظيماً ، ولقد كان يكون امراً اكثر قرباً الى العقل لو انهم كانوا حلفاءنا . وعدا ذلك ، فالالمان مسالمون ، اما الفرنسيون ف « اهل شجار » . . .

•

الفصل الرابع عشر

سريعاً ما يتغير المهاجرون الاوروبيون في اميركا . فان هذه البلاد تملك القدرة على صهر الافكار والقلوب .

لقد تكونت الامة الاميركية من خليط من مختلف الشعوب . ولا يزال الكثيرون منهم يحتفظون بلغاتهم القومية .

تصدر في اميركا صحف بعدة لغات اوروبية : ايطالية ، وبولونية ،

والمانية ، واسبانيولية ، وروسية ، وصربية ، واوكرانية ، وتشيكية ، وغيرها . وفي القرب من شيكاغو احياء كاملة لا تسمع فيهـــا غير اللغة الالمانية . وثمة اسماء مدن تكشف عن اصلها : فهناك واحدة باسم لندن، وبضع باسم روما ، واربع باسم موسكو ، وهناك ايضاً ، بطرسبورغ واثينا وفلورنسا ومونبلييه ، واورليان الجديدة ، ونيوكاستل . . .

لقد احتفظت كل جماعة قومية بخصائصها .

ولكن ابناء المهاجرين، وخصوصاً احفادهم،يشعرون بأنهم اميركيون بكل معنى الكلمة . ويتسارع سير هضم المهاجرين بقدر ما يكون هؤلاء قد فقدوا ، في الغالب ، جميع ما يملكون في بلادهم الاصلية. وهم ، حتى اذا لم يوافقهم هذا المنزل الجديد تمام الموافقة - فلم يبق لهم من خيار . . انهم مرغمون على اقناع انفسهم ببلوغهم الارض الموعودة .

من الطبيعي التسليم بان المساواة القومية ، في هـــذه البلاد المتعددة القوميات ، ينبغي ان يكون لها المقام الاول . ذلك ، فان اميركا التي لم تتعرف الى الاقطاعية ، قد اقامت لديها نوعـــاً آخر من المراتب هي المراتب العرقية . فالنبلاء هم الانكليز والايكوسيون والايرلنديون . ويليهم السكاندينافيون الالمان. وبعد هؤلاء - الفرنسيون والسلافيون. وبعد ذلك بدرجات الايطاليون . وادنى من ذلك-اليهود والصينيون وفي درجة اسفل من هذه - البورتوزيكيون . واخـــيراً ، في اسفل درجات السلم – الزنوج .

الاميركيون يحبون الكوكتيل(١). وعندهم الكثير من الوانه . من بينها واحد يذكر بقوس قزح . انواع من الشراب مختلفة الالوان،

---

(١) - شراب مؤلف من مزيج نوعين او اكثر من انواع الشراب المختلفة (المعرب)

صفراء ، خضراء ، خمرية ، تبدو في القدح طبقات متراكمة ، غير متمازجة. ان هذا الكوكتيل يحملني على التفكير في اميركا ، وفي طبقاتها العرقية. وغريب حقاً ان فكرة « الصفاء العرقي » تجد اعنف المدافعين عنها في بلاد تكونت قوتها من مزيج الشعوب! يمكن للمرء ان يحب الكوكتيل او لا يحبه ، ولكن من الصعب احتمال لهجة التأكيد التي يستعملها الساقي ، الذي مزج الكوكتيل ، في امتداح صفاء شرابه واصالته . ولا شغل للعرقيين الاميركيين ، في الواقع ، غير الاطناب بتفوق « العرق الاميركي » على جميع العروق الاخرى .

لقد لعبت اميركا دوراً كبيراً جدا في الحرب ضد العرقية الهتلرية . ومع ذلك ، فان للعرقية هنا قوة القانون. ان الحديث عن العرق موجود في كثير من المستندات الرسمية : « ابيض » ام « ملون » ؟ اذا كان لاحد جد « ملون » سجل اسمه بين « الملونين » ، وعن هذا الطريق يحل بـه مصير اخوانه الملونين .

كنا ضيوفاً على الحكومة الاميركية ، وقد ضحكت حين خطر لي ان اتساءل ماذا كان يعمل ممثلو الحكومة الاميركية لو ان الشاعر القومي الروسي ، بوشكين (١) ، كان بيننا .

حاول احد محامي مدينة ناشفيل ان يقنعني ، مهما كلفه الامر ، بوجود « عروق عليا وعروق دنيا » . كان يكرر جميع نظريات روزنبرغ وبقية الدعاة النظريين للريخ الثالث . وهنا وقعت عيني على صورة اخ له قتل في الحرب : « لقد صرع على نهر الرين » . قلت : « على كل حال ، انها سخرية القدر . لقد سقط اخوك في الحرب ضد نظرية تتولى انت الدفاع عنها » فاجابني المحامي وهو يهز كتفيه : « لقد مات في سبيل اميركا » .

(١) - كان جد امه زنجياً اسمه هانيبال . (المعرب)

ان العداء للسامية من الامور الشائعة في اميركا . ولا يجلب ذلك اي انتباه بل يبدو من الامور الطبيعية ان لا يشغل هذا المدير غير «الآريين»، وان يرفض ذلك الفندق ، اليهود .

قال لي اميركي ان ليس ينبغي ان ينظر الى هـــذه الاشياء نظرة فاجعة : « فلئن لم يقبل للعمل هنا ، فسيقبل في مـــكان آخر ، وليست الفنادق الراقية مما ينقص بلادنا . »

كيف يمكن لهذا ان يفهم ان ثمة شيئاً آخر ، عدا اسباب الرفاه ، هو الكرامة الانسانية ؟

ان العرقية في نيويورك مضطرة للتخفي ، ولكن هذا لا يخدع احداً. ليس من الممكن وضع هذا الاعلان ، مثلاً : « فندق فيكتوريا - اليهود غير مقبولين . » ولكن يمكن ان يوضع على الصورة التالية : « فندق فيكتوريا - الزبائن محدودون - الكنيسة بجواره » . والجميع يذكرون مغزى ذلك ، ولن يتخطى يهودي عتبة هذا الفندق . وهو يعلم ايضاً ان بحيرات ولاية كونيكتيكوت رائعة فاتنة، ولكنها خطرة. فالاستحمام فيها مقتصر على « الآريين » .

في نيويورك مليونان من اليهود . بينهم اغنياء وفقراء ، ومعروفون جداً ومغمورون . وهم ، بمقتضى الدستور ، مواطنون مئة بالمئة ، الا ان الاضطهاد العنصري يثقل كواهلهم . ففي الجامعات قيود عرقية، ولكن وراء ستار مموه . وفي بعض الاحياء، لا يؤجر بيت لعائلة يهودية، باي سعر كان . ومن النادر جداً ان يتوصل يهودي الى وظيفة في الدولة.

ان المنبوذين في الساحل الغربي، هم الصينيون . فليس في وسع هؤلاء ان يدخلوا اي فندق من فنادق « البيض » ، او اي بيت من بيوتهم او مطعم من مطاعمهم .

وثمة نوادٍ وجمعيات لا يقبل فيها ايطالي ، – بصفته ممثلاً لعرق منحط .
اما وضع الزنوج فهو ، على الخصوص ، وضع فاجع . ان عددهم اثناعشر مليوناً . فحين يؤكد اميركي انه متمتع بحقوقه ، ففي استطاعتنا ان نرد عليه مبينين له ان هناك اميركياً من كل عشرة اميركيين محروم من اول الحقوق الابتدائية – الحق في ان يكون انساناً .

تلقينا في واشنطن دعوة من اميركي مهذب ، للقيام بنزهة في الزوارق على نهر بوتوماك . كان منظراً شعرياً ... وكان بعض الزنوج في احد المراكب . فقالت لنا زوجة مضيفنا : « ها انتم ترون ان ليس هناك ما يمنعهم من النزهة في القوارب » .. كانت تنتظر ان يهز كلامها مشاعري ، ولكن الغضب اخذ بي ، وقلت لها ما يليق بها ، وما هو رأيي في الاضطهاد العنصري . فارسلت ابتسامة عذبة : « اذا كان لديك بنت فهل تزوجها من احد الزنوج ؟ » فاجبتها باني افضل الزنجي على الفاشستي . فلم تصدقني وقالت : « تريد ان تعتبر نفسك من اهل الشذوذ » . ومن ثم سمعت حكاية البنت والزنجي هذه ، مئة مرة ، على الاقل – انها الحكاية المحببة الى العرقيين الاميركيين . وفي كل مرة كنت اعطي الجواب نفسه – ولم يصدقني احد البتة .

ان النيويوركيين يلفتون النظر ، بطيبة خاطر ، الى الروح التحررية في الشمال : لقد حارب آباؤنا ضد العبودية . » لقد اقيمت في عدة مدن شمالية وجنوبية ، انصاب تذكارية لضحايا حرب ١٨٦١ – ١٨٦٥ . الجنوبيون يمجدون « المدافعين عن الحرية » – حرية الاستعباد – اما الشماليون فيمجدون الظافرين . لا ريب ان الشمال قد انتصر في ساحة القتال . وقد انكسر انصار العبودية . ولكني شعرت ، اثناء تجوالي في اميركا ، ان المنكسرين قد ربحوا القضية ، في النهاية . فهم لم يحتفظوا بعاداتهم

الاستعبادية وحسب ، بل لقد نقلوها الى الشماليين ايضاً .

قامت « مؤسسة الرأي العام » بالتحقيق التالي : « هـل يجب منح « الملونين » حق المساواة في العمل ؟ » فكان ٤٣ بالمئة مؤيدين،و٤٦ بالمئة ضد كل تبديل في النظام القائم . ولقد انتقلت الى المظلومين، من الظالمين، عدوى السموم العرقية . فللزنوج ايضاً نبلاؤهم: الخلاسيون(١) . سمعت زنجياً يقول : « لست كفؤاً لها . انها شديدة بياض الجلد . » والتقيت بزنوج ضد السامية ، ويهود ينادون بتفوق البشرة البيضاء على السوداء .

•

الفصل الخامس عشر

كثيراً ما كنت اركن الى الفرار من قلب نيويورك الى « هارلم »، حي السود . يتوفر في هذا الحي ، الوساخة والبؤس ، ولا تقع فيه العين على اثر لذلك التكنيك الاميركي الرائع .

الا ان الناس، في هذا الحي ، اكثر حبوراً، واكثر بساطة، واكثر بشرية . والجماهير في الشوارع تذكر بجماهير مرفأ في اوروبا الجنوبية .

يعيش الزنوج في هذا الحي لانهم لا يجدون من يؤجرهم بيتاً في غيره. واجرة كوخ حقير في هارلم أغلى من اجرة غرفة ملائمة في حي آخر. في كل صباح يغادر الزنوج الحي الاسود للعمل في الاحياء « البيض » . انهم كناسون وعمال مصاعد واجراء وسائقو سيارات ، وحراس، وبناؤون.

(١) – الخلاسي – ولد من ابوين ، ابيض واسود . (المعرب)

انهم سود ، وبالتالي ، ايد عاملة . فيُستثمرون، ويضطهدون ويكونون موضعاً للهزء والسخرية .

ان المساواة بين العروق في نيويورك موجودة نظرياً . فليس يمكن طرد زنجي من مطعم ، والقول له : « اخرج من هنا ، لانك اسود » . ولكن يمكن ان يقال له . « جميع الموائد محجوزة » ، حتى ولو لم تكن كذلك . ان القانون شيء ، ولكن المطعم هو شيء آخر ، وليس يسمح ابداً لزنجي بان يتخطى عتبته .

رغبت ان ادعو الى مائدتي صديقين زنجيين ، صحافي وموسيقي . وكنت اسكن في الطابق الرابع عشر . فابلغتني الادارة انهما لن يتمكنا من الصعود ، لان المصعد الكهربائي متوقف .

تعتبر نيويورك اكثر مدن الولايات المتحدة تقدمية . وقد اراد مدير احدى الصحف التقدمية في المدينة ان يعرض امامي عقيدته التقدمية، فقال لي : « ويشتغل عندنا زنوج ايضاً ... ». كان يستخدم ساعياً زنجياً . لقد ارتبطت بالصداقة من الزنوج . فليس لديهم طيبة القلب وحسب ، بل انهم ، فوق ذلك ، ينتسبون ، في الوقت نفسه ، الى احب ميدان الى قلبي ، ميدان الفن . في اميركا كثير من البدائع ، للفن فيها المكان اللائق . فهناك افخم المتاحف ، واضخم المطبوعات في آداب الفن ... ولكن نيويورك مطبوعة ، في الغالب ، بطابع سوداوي ...

انه يذكرني بقصة رائعة لاندرسون ، « البلبل والخان » . قدم الى ملك الصين الجبار بلبل ميكانيكي ، يغني ببراعة ، يمثل براعة البلبل الحقيقي . يكفي ان يشد نابضه حتى يسمع تغريده فور الرغبة في سماعه . لكن ها هو الموت يقبل ، والملك يحاول ان يطمس صوته ، فيطلب الى البلبل ان يغرد ، ولكن عبثاً كان يطلب ، فالجهاز الآلي كان قد تخرب .

الا ان الملك تلقى النجدة من بلبل حقيقي ، كان قد طرده من حديقته .

ان الزنوج هم البلابل الحقيقية في اميركا . عندما كنت اشعر بالحنين الى الوطن ، وبالحاجة الى الفن الحقيقي ، كنت اذهب الى حي هارلم الموبوء . الزنوج هم ابرع الموسيقيين ، وابرع الراقصين ، وابرع الممثلين الهزليين في فن التقليد . ان لديهم حس الايقاع الموسيقي . وهم ليسوا آليين . وحين يلعبون تشعر كأن الموتى قد بعثت من القبور .

اغاني الزنوج كئيبة كحياتهم ، وفجأة ترتسم على شفاههم ابتسامة كابتسامة الاطفال فتضع حداً لشكواهم ... وما من مكان بلغ فيه المرح وحب الحياة مبلغهما في اكواخ هارلم .

في قلب نيويورك مسارح زنجية . انها مسارح جيدة، والبيض يصفقون فيها راضين كل الرضى . ولكن اذا خطر لممثل زنجي ان يتناول طعام الصباح في المطعم المجاور ، فانه يرد الى خارج الباب .

ان نيويورك لم تجتز بعد مرحلة حسرة الخان ، على فراش الموت .. ولا يزال البلبل الحقيقي طريداً ...

●

الفصل السادس عشر

سئلنا في وزارة الخارجية عن الجهات التي نرغب في زيارتها . فاعرب سيمونوف عن رغبته في الذهاب الى هوليوود . وكان الجنرال غالاكتينوف مدعواً من قبل ادارة احدى كبريات الصحف في شيكاغو . اما انا فقد فضلت الجنوب . حاول الاميركيون صرفي عن هذا : لبس

هناك ما يكفي من اسباب الراحة ، والمكان بعيد ... فبقيت مصراً على رأيي ، وبرهنت لهم ان الطريق من موسكو الى واشنطن اكثر طولاً من الطريق بين واشنطن والميسيسيبي ، واني ، بعد كل شيء ، لا اخشى فقدان اسباب الراحة ، بصفتي مراسلاً حربياً سابقاً كنت اريد رؤية الجنوب لاسباب عديدة : اني احب الزنوج ، اولاً . واتذكر ايضاً كتباً قرأتها في شبابي ، تفيض بالحديث عن آلامهم . ولاني احب روايات الكتاب الاميركيين المعاصرين ، فولكنر وستينبيك .

كان دليلي الصحافي اليساري جيلمور ، ابن احد الامبريالية ، وهو نفسه من اهل الجنوب . كان تحت تصرفه سيارة «بويك» فاخرة ، وبضعة اسابيع . وكنا نتكلم الفرنسية . ووضعت الحكومة تحت تصرفي مدير جريدة «اميركا » ، مستر نلسون . وقد تحدثت معه بالروسية . وانضم الينا في الطريق سام غريفتون ، وهو من صحافيي نيويورك المتمتعين باكبر قسط من الشعبية . كان يريد ان يصف اجتماع صحافي سوفياتي مع انصار العبودية في الجنوب . وكان الحديث مع غريفتون يجري بالالمانية . ولنضف الانكليزية ايضاً . وواضح ان محادثاتنا كانت تذكرنا بالمحادثات في مجلس الامن . الا انها كانت تجري في جو من الصداقة ارحب .

لقد كانت الدهشة التي اصابت بيل نيلسون من جميع ما رأينا في الجنوب – الذي لم يطأه بقدميه قبل ذاك – مثل الدهشة التي عرتني . اما سام غريفتون فانه ، بعد ان زار كهفاً صغيراً حقيراً تتكدس فيه ثلاث عائلات من الزنوج ، صرخ قائلاً : « ما كنت احسب ان هذا ممكن !... »

قلت : « هوذا اخيراً اللقاء بين العم سام والعم توم . »

في القطار عربات فاخرة نصف فارغة . البيض يرشفون الويسكي

ويستسلمون الى الاغفاء . ثمة عربة مخنوقة بركابها – انهم زنوج : المطر ينسكب كالسيل . هنا محطة تراموای . تدنو عربة . انها فارغة ، ولكن زنجية مع طفلها تبقى تحت المطر – المقاعد المخصصة للزنوج مشغولة . وهناك حديقة عامة : « الملونون ممنوعون من الدخول » . وهذا مخزن احذية – ينبغي على الزنوج ان يشتروا دون تجريب ، لانهم اذا جربوا حذاء ولم يقبلوه ، اصبح بضاعة لا تباع ، ولن يقبل به اي ابيض . كم قرع الاميركيون اذني بالحديث عن حرياتهم – حرية الكلام، والضمير، والتنقل ! يا للاسف ، لقد نسوا حرية اخرى ، حرية تجريب الاحذية...

ان قانون « التمييز بين العروق» موجود في جميع الولايات الجنوبية. فلم يعد الاضطهاد العنصري عادة من العادات – انه قانون من قوانين الدولة . ليس للزنوج حق الاشتراك في اجتماعات البيض ، ولا حق الدخول الى كنائس البيض ، وليس ينبغي لهم ابداً ان يفكروا في ارتياد مسرح او دار سينما مخصصين للبيض .

لقد رأيت اشياء رائعة في ولات الجنوب الاربع ، تينيسي، والاباما، والميسيسيبي ، ولويزيانا : السد في وادي تينيسي ، حيث انبثقت من العدم مدن خلابة ذات منازل ريفية صغيرة تتوفر فيها اسباب الراحة . لقد اعجبت بطابع اورليان الجديدة ، وبجمالها وانهرها العريضة وزرقة البحر في خليج مكسيكو . ولكني ، في كل خطوة ، كنت اتذكر اغرب ما يمكن للعين ان تراه : تحقير الانسان للانسان .

في الجنوب ، كما في الشمال ، محطات ممتازة . ولقد كان بودي ان ازجي الثناء العاطر الى تلك البلاد التى فعلت الكثير للتخفيف من اعباء الحياة اليومية للانسان . ولكن ذلك لم يكن في وسعي ، لاني شهدت ، في هذه المحطات نفسها ، زوايا صغيرة مظلمة منتنة ، مخصصة للزنوج .

وجهت الينا دعوة من احد ملاكي مزارع القطن . منزل رحب ، تحيط به اشجار طويلة العمر . الزوجة جميلة ، والاطفال وسام ، والجميع في ثياب نظيفة انيقة . وحولهم عبيد سود يكدون ويعرقون . وفي داخل البيت – كل ما في اميركا من روائع ، ابتداءاً من جهاز راديو قوي يمكن ان يلتقط اذاعات طشقند وملبورن واندور ، وانتهاء بالمروحة الكهربائية .

وسقت الحديث الى آلام الزنوج ، فاجابني المزارع مبتسماً ، بان علينا ان لا نعتبرهم كائنات بشرية : « انهم حيوانات ... »

●

الفصل السابع عشر

دلتا الميسيسيبي : مزارع . الارض ملك البيض ، يؤجرونها للسود . يحتفظ « الشركاء » بنصف الموسم لاصحاب الارض ، وهم مجبرون على بيعهم النصف الآخر . اما الاسعار فيحددها السيد ، واما بضع الفلوس التي يقبضها الزنوج فانهم ينفقونها في دكان السيد نفسه . ربما كان هذا في نظر المتشرعين الاميركيين ، في حكم الايجار ، اما في الواقع ، فانه استعباد . لقد رأيت بعض هؤلاء الملاكين – شراة قطن ، وباعة احذية وزيت كاز وملح . عادت الى ذهني صور صغيرة ملصقة على علب السيكار – السيد يحمل سوطاً ، وفي الحقول نساء من الزنوج ... لقد عاد المشهد الى عيني ، وانا اسمع صوت الملاك يصرخ : « اي ، جون! استعجل اكثر قليلاً ... »

زرت احد الكهوف : كان ثلاثة وعشرون شخصاً ينامون فيه ، بعضهم فوق بعض . اوه ، كم نحن بعيدون عن التكنيك الاميركي الشهير في شؤون تكييف الهواء وزيادة الترفيه والفخفخة ! الهواء في الكهف خانق . اهمال وروائح نتنة . ان اناساً يعيشون كالبهائم في هذه الاميركة المتغالية في وسائلها الصحية . قالت لي زنجية ان شقيقتها قد ماتت اثناء الوضع لانها لم تستطع ان تستدعي الطبيب . ولم يكن زوجها ايكسب غير مئة وثمانين دولاراً في العام ، ومصروف الولادة يصل الى الخمسين . ربحت عائلة مؤلفة من سبعة اشخاص ٣٠٠ دولار في العام . وربحت اخرى ، مؤلفة من اربعة اشخاص ، ٢٠٠ دولار . وكان ملاك ارضهم ينتمي الى زمرة صغار المزارعين . فراح يشكو السنة السيئة . « كم كانت مواردك ؟ » فاجاب : « اوه ، قليلة جداً ، ٢٥ الف دولار فقط لا غير ... »

كان مزارع لويزياني يشرح لي : « انت لا تعرف الزنوج ، انهم لا يحتاجون الى شيء ، ويعيشون كأنهم في الجنة ».

ليس في المزرعة مدرسة ، ولكن فيها كنيسة . كان الكاهن زنجياً . حين يكون الزنوج الشيوخ بين يدي الموت ، يغنون نشيد الانشاد . قال لي احدهم ، سراً : « اعتقد ان هناك جنتين ، واحدة للبيض ، واخرى للسود ، وان هذه الاخيرة ليست اسوأ ... »

حتى الجنة نفسها ، لا يستطيع الزنجي ان يتصورها خالية من التمييز العرقي . لقد ارتبك رفاقي ، بيل نيلسون ودانيال جيلمور وسام غريفتون ، فلم يجدوا ما يقولون. فساد صمت كئيب. وقال لنا المزارع ، مرتبكاً : « كلوا جوزاً . اشربوا ويسكي. من الحسن ان يجيء لزيارتنا ضيف روسي . ان في روسيا ايضاً حقول قطن ، اليس كذلك ؟ ... »

كنت انظر الى الميسيبي الاصفر الفاقع . لقد كنت على علـــم بالبؤس البشري ، ولكني ، على شواطىء هذا النهر ، كنت عاجزاً عن الصمت. كنت اشعر بخجل من النظر الى الناس وجهاً لوجه .

•

الفصل الثامن عشر

تغير الجنوب كثيراً في السنوات الاخيرة . فانبثقت من الارض مدن صناعية كبرى. ولا يزال يعشعش قليل من الرومانتيكية في المدن القديمة ، ليفنكستون او ناشيز . وتذكر مدينة برمنكهام باحــدى مدن الشمال . المصانع نفسها والشوارع الكبرى نفسها . لقد كان واشنطن على ضلال في استصغار شأن الجنوب . فان فيه لشيئاً من اسباب الرفاه والراحة .

ان صناعة التعدين في برمنكهام نامية جداً . التجهيزات حديثة. وبين العمال كثير من السود . ولكن المرء يشعر كأنه في مزرعة قطن . فقد نجح الجنوبيون في سكب العمل الحديث في نطاق العبودية القديمة. اقسى الاشغال في المصانع ، يؤديها الزنوج . وهم لا يستطيعون ان يعملوا على آلة الصهر ، ولا على الآلات الميكانيكية او الكهربائية. والعامل الاسود يتناول اجراً في الساعة ينقص ١٥ سنتيماً عن اجر العامل الابيض.

لقد خلقت العرقية المفاسد حتى بين جماعات العمال . ان الرؤوس المظلمة، التي تعرف استخدام جهاز التبريد ، لم تتوصل الى معرفة التفكير. فكثيراً ما يقولون : « ليربح صاحب العمل اضخم الارباح ! فنحن ايضاً

نجني من ثمرها . » ان الشعور الطبقي ينقصهم و كثير من النقابات يقودها مغامرون او مخاتلون مباعون . يؤكد هؤلاء للعمال ان مصائبهم لا تعود الى جشع صاحب العمل ، بل الى « مزاحمة » السود . اثناء الحرب طرأ على اليد العاملة النقص . فاستخدم الشمال زنوجاً لتوفير بضع دولارات الزنوج ارخص اجراً . فلم يتجه غضب العذل نحو المستثمرين البيض — بل اتجه ضد البؤساء السود . لم يكن ضيق الوقت هو السبب في تشكيل نقابات مهنية مختلطة تقدمية . ولا يوجد مثل هذه النقابات في كل مكان . اما الآخرون ، العرقيون ، فلا يريدون قبول الزنوج للشغل في عمل من اعمال الاختصاص . بل لقد كان هذا مثاراً لاضطرابات ومذابح حقيقية ، ضد الزنوج .

يعيش العمال الزنوج في برمنكهام في نطاق من الوحدة والبؤس . ويتألف «الغيتو» الاسود من مجموعة اكواخ . العزلة تحط عليهم بكلكلها . فهم منبوذون . زرت احد الزنوج في بيته — هو رئيس النقابة التقدمية ، رجل فكر وشجاعة . وكان يمتاز بالحكمة التي توفرها سنوات البؤس والنضال . وقد توصل اخيراً الى ضم الفرع الاسود الى النقابة المهنية . وجهت اليه بعض الاسئلة عن علاقاته مع الرفاق البيض : فاجابني : « اما العمل ، فحسن جداً » — « هل تزور احد منهم ؟ » — « كلا» —«والرفاق البيض ، هل يأتون لزيارتك ؟ » — « ابداً ... »

الفصل التاسع عشر

لجميع المواطنين والمواطنات ، بمقتضى دستور الولايات المتحدة ، حق الاشتراك في الانتخـــاب ، دون اي تمييز عنصري . ولكن الزنوج محرومون ، عملياً ، من حق التصويت في الولايات الجنوبية . في ولاية الاباما ثلاثة ملايين من السكان ، بينهم مليون ومئة الف من الزنوج . وهناك ٩٦ الف ناخب ابيض مقابل اربعة آلاف اسود . ويبلغ عـــدد الزنوج الراشدين في برمنكهام ١٣٠ الفاً : وليس بينهم غير ١٤٠٠ ناخب . والزنوج في ولاية الميسيسيبي يؤلفون نصف السكان ، وهذا النصف محروم من حق التصويت .

ترى كيف تسنى لولايات الجنوب ان تخرق القانون الاتحادي؟

ثمة عدة اساليب . اولاً : ضريبة الرؤوس . ان الزنوج في الجنوب بؤساء ، فبضعة دولارات هي ، في نظرهم ، ثروة . لقد توسل الينا احد الزنوج بان نأخذه الى احدى ولاياتُ الشمال . كانت امنيته ان يزور هارلم ، وهو لن يتوصل ابداً الى جمع المبلغ الضروري للسفر . فكيف يتوصل اذن الى دفع ضريبة التصويت؟ وهناك ، عدا الضريبة ، الفحوص . ان على الناخب « ان يفهم الدستور ويحسن شرحـه » . وبديهي ان الفاحصين ، وهم متشيعون للعنصرية ، يسقطون جميع الزنوج . ومما يروى هناك ، الحكاية التالية : قدم لاحـد الاساتذة الزنوج ، اثناء الفحص ، مختلف النصوص ليقوم بـ « شرحها » . واخيراً قدم له احـد الفاحصين جريدة صينية ، قائلاً : « هل تفهم ما هو مكتوب هنا ؟ » فاجاب الاستاذ

الاسود : « اعرفه تمام المعرفة . مكتوب هنا انكم لن تقبلوا ابداً ان يدخل الزنوج مراكز الاقتراع . »

وفي النهاية ، اذا ما دفع الزنجي الضريبة المفروضة ، واذا ما نجح في اجتياز فحصه ، فان بضعة عصي غليظة كفيلة بارجاعه سريعاً الى الصواب ورده عن عناده الانتخابي . لا مجال للقول : انهم ، في الجنوب، يحسنون « شرح » الدستور !

●

الفصل العشرون

يقول المدافعون عن الاضطهاد العنصري : « ليس يمكن اعطاء الزنوج جميع الحقوق . انهم خليون من الثقافة . »

وفي الحق ، ان العرقيين يعملون كل شيء لحرمان الزنوج من التعليم. لقد حدثني بيل نيلسون كثيراً عن تنظيم التربية الوطنية: «جميع الاميركيين، حتى سن السادسة عشرة ، مجبرون على دخول المدرسة...» اما في ولاية الميسيسيبي ، فلم يعد ليقول شيئاً من هذا. لقد رأينا فيها فتياناً لا يعرفون القراءة ، واطفالاً زنوجاً لم يروا المدرسة في حياتهم ابداً . وهم منذ نعومة اظفارهم لا يعرفون غير الكدح . ليس يمكن القول ان انصار الاستعباد هم المدافعون عن ثقافة البيض . انهم ، بصورة عامة ، يفضلون السوط على الابجدية . والمعلم ، في ولاية الميسيسيبي ، رجل بائس . انه يكسب ٦٠٠ دولار في العام . اما المعلمون السود ، فهم ليسوا بائسين وحسب، بل ان عليهم ايضاً ان ينحنوا للبيض. عندما يجيء مفتش ابيض لزيارة مدرسة من

مدارس السود، ينادي المعلم باسمه الصغير : « اي بيل ! اى ، جون!.. » وان يكن المفتش في الخامسة والعشرين والمعلم في الخمسين ولزام على هذا الاخير ان يجيبه ممتثلاً : « طوع امرك ، مستر سميث ... »

حدث مرة ، في ولاية آلاباما ، ان جميع المبالغ المخصصة للتعليم العام وزعت على البيض . وبدافع من الضمير ، استدعي الاستاذ الزنجي لكي يبين له ان « الميزانية محدودة ، وان المبالغ قد صرفت ، فينبغي الرضى بالامر ... » فاجابهم الزنجي ، بكل احتشام : « الحق معكم . فالبيض اكثر حاجة الى التعليم من السود . »

قدر لي ان اتعرف في الجنوب الى كثير من الزنوج المثقفين، كتاباً وعلماء واطباء ومحامين واساتذة ...

فهل ينبغي علي ان اضيف ، ان هؤلاء الزنوج المثقفين يكونون بقعة بيضاء فوق صفحة الجنوب ، التي يكثر فيها المتوحشون البيض ، من حملة الشهادات ؟ لقد زرت ادارات تحرير بعض صحف الزنوج ، حيث لقيت بعض المتحمسين يدافعون عن حقوق الانسان ، معرضين ، في كل ساعة ، لخطر الموت !

يدرس في جامعة «فيسك» الخاصة ٧٠٠ زنجي وزنجية . سيكونون اطباء ومحامين ومعلمين .. بيد انهم لن يكون في وسعهم ان يعالجوا او يعلموا غير السود ، ولن يكون في وسعهم ان يدخلوا في مرافعة الا اذا كان المتهم ملوناً . ان الاساتذة السود لا يدخلون المكتبة العامة . ولقد اعترف لي البروفسور برادي ، وهو كيماوي شهير ، بانه لم يكن يتمكن من العمل في مخبر جامعة الدولة . قضيت في جامعة فيسك بضع ساعات رائعات ، ورأيت فيها شبيبة تنشد الحقيقة . تعرفت في هذه الجامعة الى طالبة كانت تتكلم الروسية . كانت نصف روسية ، من جهة امها ، التي يرجع اصلها الى اوديسا . اما ابوها فزنجي . ولقد كانت ، لبياض

جلدها ، لا تحمل اي مظهر زنجي . ولكن بطاقة هويتها كانت تسجل انها «ملونة» لقد كانت اذن «ملونة»، وظلت جميع الابواب موصدة في وجهها.

تعرفت الى مهندس في اورليان الجديدة : اشقر ابرش . كان رجلاً بديعاً ، فجأني بسعة علمه . دعوته الى فنجان من القهوة ، فرفض دون بيان سبب للرفض . وقد اوضح لي بعض الاصدقاء انه معروف في المدينة بانه «ملون»، وانه ، لذلك ، لا يملك حق الدخول الى المقهى .

ثمة صحفيون لبقون يحتفظون للسود ببعض الاعمدة في صحفهم. هذه الاعمدة لا يقرأها الابيض ابداً . واذا تجرأ ابيض على تصفح جريدة زنجية، اهين او ضرب

واذا شاء هذا الابيض ان يكون نصيبه القتل ، فيكفيه ان يعلن بان السود هم بشر مثل البيض .

●

الفصل الحادي والعشرون

ثمة قوانين غير مكتوبة ، علاوة على القوانين المكتوبة ففي استطاعة رجل ابيض ان يغتصب زنجية . ولن يلقى عقاباً على عمله واذا اقام ابيض حياة منزلية مع زنجية ، كان نصيبه الضرب . اما نصيبها هي — فالموت . واذا بدأ زنجي بالحياة مع بيضاء ، اتهم باغتصابها . وبالتالي ، يشنق او يصير الى الكرسي الكهربائي .

اثناء اقامتي في جاكسون ، حكم بالموت على فتى زنجي، بائع حليب. كانت تربطه ، منذ عدة سنوات، علاقات ودية مع امرأة بيضاء. وفيما هو، ذات يوم ، في بيت عشيقته ، اذا بزوجها يظهر فجأة . وصرخت المرأة : «النجدة ! انه يغتصبني !». لقد اعترف لي محامي الزنجي بان احداً لا

يشك ببراءتــــه . ولكن شهود الادعاء كانوا من البيض . والقضاة لا يستطيعون ان يأخذوا شهادات الزنوج بعين الاعتبار، ولا ان يفضحوا البيض باعتبارهم شهود زور . ولقد جرى تمييز الحكم ، وحولت الدعوى الى واشنطن ، ولكن حكم الاعدام نفذ في الزنجي .

ثمة فرق زهيد بين القضاء في الجنوب وبين «اللنشاج(١)» .

اغتصب ستة من البيض فتاة زنجية في «أليفيل» . واعلن القاضي ، على رؤوس الاشهاد ، انه لا يرى في هذا العمل «فعلاً اجرامياً».

وحدث في «بيسيمور» ان تخطى زنجي منطقة السود في الترامواي بضعة مليمترات الى منطقة البيض ، فاصابه السائق بجراح. وركن الزنجي الى الفرار . فقبض عليه الدرك وقتل في الحال . واعلن القاضي انـه لا يرى «فعلاً اجرامياً» في العقاب الرادع الذي لقيه هذا الزنجي المتغطرس الذي بلغت به القحة حد اغتصاب مكان رجل ابيض .

قام بعض البيض بتنظيم مذبحة ضد الزنوج في كولومبا،فقتلوا زنجيين وجرحوا اثني عشر. فلم يصب المهاجمين المعتدين ، اثر ذلك، اي سوء. بل بالعكس،فان من كانوا ضحية الاعتداء، وهم ثلاثون زنجياً،قد سيقوا الى المحكمة . انهم لم يقتلوا احداً ، انما كانت جريمتهم انهم لم يقعوا قتلى.

لا يحق للزنجي ، في الجنوب ، ان يكون محلفاً . والمحاكم لا تصدر حكماً ببراءة زنجي . وبالعكس ، اذا كان على مقاعد الاتهام اشخاص قد اساؤوا معاملة الزنوج ، فالمحكمة تقضي باطلاق سراحهم .

اللنشاج في الجنوب نوع من التسلية. ينصرفون اليه،انصرافهم الى نزهة، حاملين السندويش والويسكي . ان الزنجي لا يعرف النوم المطمئن ابداً.

(١) اللنشاج – نسبة الى «اللنش» ، وهو اسلوب همجي في الولايات المتحدة حيث تقوم الجموع بالقبض على المتهم وتعدمه دون تدخل القضاء . (المعرب)

فمن الممكن ان يعلق على المشنقة، بين ساعة واخرى . وحين تمضي مدة طويلة لا يحدث فيها لنشاج يتساءل الزنوج بحسرة : — ترى من سيكون الضحية المقبلة ؟ كثيراً ما سمعت المرثية الزنجية «ثمرة غريبة»، وهي اغنية مؤثرة مثيرة ، تروي قصة زنجي مشنوق ، تؤرجحه الرياح .

●

الفصل الثاني والعشرون

وهم لا يحسنون الشنق وحسب، بل يحسنون ايضاً تمجيد حبل المشنقة. ففي الماضي لم يكن لدى انصار العبودية غير فكين كبيرين . اما اليوم ، فقد لفقوا لانفسهم « مبدأ نظرياً » .

ان زعيم العرقيين هو عضو مجلس الشيوخ ، بيلبو . لقد انتخبه الناخبون البيض في الميسيسيبي ، اذ ان السود لا يملكون حق الانتخاب. والبيض ينتخبونه خوفاً من السود.

الشيخ بيلبو اشقر الوجه ، احمر الانف . وهو يشرب الحليب في المجتمعات العامة رياء ونفاقاً، الا انه يغتنم وقف جلسة مجلس الشيوخ ليرشف الويسكي في الاروقة. انه يجذب الرعاع بحكاياته القذرة ونداءاته الى النضال ضد الزنوج . وفي مطلع شبابه، كان يطالب باخراج السود طراً من البلاد. ولكن ماذا يعمل المستعبدون بدون العبيد ؟ لقد كانوا يدركون جيداً ان هذا الطلب ما هو الا كلام للدعاية. فليس في وسع البيض الاستغناء عن يد عاملة رخيصة . وهم لا يخشون ، مع ذلك ، الا رؤية الزنوج، وقد توطدت اقدامهم ، وراحوا يطالبون بالتساوي في الحقوق . ولذلك يصوتون لبيلبو ، للسوط ، للاشغال الشاقة ، للنشاج ...

قرور البيض ، غداة الهجوم الياباني ضد الولايات المتحدة ، ان البشرة السوداء لا يمكن ان تكون عـائقاً في سبيل التعبئة . فدعي اكثر من مليون زنجي الى الدفاع عن اميركا . ولقد قاتلوا العرقيين الالمان قتالاً مجيداً ، ولكن حماقة من لديهم من العرقيين جعلت الاضطهاد ينزل على رؤوس السود انفسهم .

قافلة من الاسرى الالمان ترسل في حراسة جنود سود. بعد الوصول الى المحطة ، يقاد الاسرى الى المطعم، ويرسل الزنوج الى المطبخ . ويحتج الزنوج، ويتكلم في الموضوع نائب اسود في الكونغرس. وتعقد اجتماعات شعبيـــة. وينتحر زنجي في تماشي الكابيتول للاعراب عن استنكاره . وتتحدث الصحف في هذا . ولا يكون لهذا اي اثر في انصار الاستعباد.

لقد شعر الجنود الزنوج العائـدون الى مدنهم في الجنوب ، انهم ، في باريس او في روما ، لم يجدوا من ينظر اليهم نظرته الى مجذوم فادرك ابعدهم عن الادراك ، ان في العالم شيئاً آخر - شيئاً اكثر انسانية - غير «ديموقراطية» الديموقراطي بيلبو. في الماضي كان البيض يعتبرون السود حيوانات بلهاء ، ولكنها طيعة . اما اليوم فقد بدأ البيض يخشون السود: واذا سئم الزنوج غناء المراثي بانتظار الشنق القريب ؟...

يستفيد الزنوج في الشمال مما لديهم من حرية نسبية، فينظمون الجمعيات. وقد عقد اخيراً مؤتمر لهم . انها بداية نضال الملونين في سبيل المساواة . سيكون هذا النضال قاسياً ، لان العرقية متغلغلة في لحم الاميركيين ودمهم.

وفي الجنوب تقدميون ، الى جانب العرقيين ولكن، حتى التقدميين، لا يخلون من اثر للافكار السابقة العرقية . لقد تحدثت الي طويلاً عن هذا الظلم المشهود ، وجه من اشرف وجوه الجنوب ، عدو لدود للعبودية ، ومدافع عن الزنوج . قضينا نحواً من نصف ليلة في الحـديث الودي . واخيراً سألته عن سلوكه الشخصي نحو الزنوج . ففكر واجابني : « اني

ادافع عن الزنوج ، كما تعلم . وكذلك ، فاني استدعيت طبيباً من اجل توليد خادمتي السوداء . ولكنهم مع ذلك ، ليسوا ، في نظري ، كائنات بشرية بكل معنى الكلمة. فاثناء اللعب مع طفل زنجي، شعرت فجأة اني، انا نفسي ، كنت افكر اني ألعب مع جرو محبب، لا مع طفل...»

كنت اعرف ، عن طريق الصحف والكتب ، كيف يعيش الزنوج في اميركا . ولكن المعرفة شيء ، والرؤية والاحساس شيء آخر .

اني لم اكتشف اية «اميركة» في اميركا . فلقد كنت اعرف ناطحات السحاب ، من السينما . ولكن السينما لم تكن تسمح لي بان اعرف ماذا يعني السير بين دارين تتكون كل منهما من اربعين طابقاً . وكذلك فيما يتعلق بالزنوج: اني لم افهم، الا في الميسيسيبي ، الى اية درجة من الوحشية يمكن ان يصل الناس المتعلمون الذين يملكون دستوراً نموذجياً ومراوح كهربائية متقنة .

سمعت هذا الرأي من احد رجال الصحافة في نيويورك: «انك تحمل ميولاً معادية لاميركا...» فسألته، بدهشة، عن البرهان، فقال: «انك تعطف على الزنوج!». ترى، كيف السبيل الى افهامه ان العطف على الزنوج ليس ابداً ميلاً معادياً لاميركا، وانه، بالعكس، يعني العطف على الاميركيين، والرغبة في ان يكونوا ارحب تفكيراً ، واكثر انسانية ، واكثر ذكاء ؟

●

الفصل الثالث والعشرون

قرأ الصحافي الشهير ليبمان احدى مقالاتي عن اميركا ، فاخذ علي اني انتقدت ما هو سهل على النقد، يعني التعصب العرقي. وقال ان الاميركيين

انفسهم يعرفون عيبهم، ويشجبون مواقف الشيخ بيلبو . واضاف قائلا ان الاميركيين يشعرون بالسعادة حين يتمكنون من القيام بالنقد الذاتي ، واننا ، نحن الرجال السوفياتيين ، حين يصبح في وسعنا ان نقدر القيم الاميركية ونواقصنا الخاصة حق قدرها – حينذاك فقط ، يصير في وسعه هو ، ليمان ، ان يعتبرنا «بشراً سويا».

اني لعلى علم بان خيرة الاميركيين يشعرون بالخجل حقاً من موقف بلادهم من الزنوج. ولكن ليس يكفي تشخيص المرض، ليكون الانسان طبيباً، انما ينبغي معرفة كيفية الشفاء. سألت عدة اشخاص في الجنوب: « هل تحسن وضع الزنوج خلال السنوات العشر الاخيرة؟» فاجابوني: «في ولاية اتلانتا، نعم. اما في ولايات اخرى فقد زاد سوءاً. وقد ظلت الحال، من حيث الاساس، كما كانت من قبل.» ان كون ليمان يعتبر بيلبو رجلا سيئاً لا يزيل عناء الزنوج ابداً، لان ليمان موجود في نيويورك وهو ينشر مقالات عن السياسة الخارجية. والزنجي في الميسيسيبي، يرتجف لذكر اسم بيلبو.

وكان رجل من ابرز رجال الدولة الاميركية يشرح لليوغوسلافيين، في مؤتمر باريس، ما هي المساواة، وما هو التسامح. ومنذ ربع قرن كان هذا الرجل نفسه نائباً عن ولاية كارولينا الجنوبية، وكان يصرح: «ابداً لن يكون للزنوج في هذه البلاد حقوق مساوية لحقوق البيض » ولقد طرأ تغيير على كثير من الاشياء منذ ذلك العهد . فهل تنكر هذا الرجل لآرائه القديمة؟ وهل تغيرت قوانين كارولينا ؟ لو اني كنت مكان هذا الرجل، لاحجمت عن الخوض في حديث عن المساواة والتسامح .

ولكن لنعد ايضاً الى ليمان. اننا لم نجحد ابداً المزايا الاميركية، ونحن لم نخف نواقصنا قط، لا على انفسنا وعلى الآخرين اني لمخلص في اعجابي باميركا، وتكنيكها، وتطورها الصناعي، وتقديرها للعلم، وجامعاتها، ومخابرها، ومتاحفها، ومكتباتها. . . واني لاقدر عدة كتاب ومهندسين ومخرجين.

واعتقد اننا نستطيع ان نتعلم الكثير في اميركا . ونحن ، فوق ذلك ، نعرف عيوبنا ، من بوروقراطية ، وتأخر تكنيكي ، وعادات عنيفة . ونحن نكشف عن هذه العيوب ، لا تلذذاً بالنقد ، بل لنتخلص منهـــا . ولكن، لا حاجة لتغيير الموضوع : ان بلادنا خالية من انصار الاستعباد. وليست المسألة ان نعرف ما اذا كان ليبمان يعترف لنا بصفة الانسان. ان المسألة هي هنا : انعترف نحن بان العرقيين الوحشيين الغلف العقول ،هم بشر

●

الفصل الرابع والعشرون

في الاجتماع الصحفي الذي عقده ناشرو الصحف ، سألني احدهم: «علام تظل تتحدث عن الفاشستية ، انها لم تك موجودة في غير ايطاليا ، وقـد زالت مع موسوليني . » ان هذا الاختصاصي العليم في الشؤون الاوروبية يدير وريقة لا يمكن ان تسمى غير فاشستية .

ان الفاشست هنا قد رفعوا رؤوسهم. انهم يحاربون التقدم،ويحاربون ظلال روزفلت ، والمثقفين التقدميين ، والعمال . . .

في الربيـــع الاخير جرى في ولايـــة جورجيا ، عرض لجمعية « كو - كلوكس - كلان»، وهي منظمة فاشستية قديمـة تقوم بمذابح ضد الزنوج وباللنشاج . انها ، من الناحية الرسمية، جمعية سرية،اما في الواقع، فهي تعمل جهاراً وعلانية . وفي جميع المجلات الاسبوعية المصورة ، يمكن رؤية صورة فوهرر هذه الجمعية الذي اطلق عليه اعضاء الـ« كو - كلو كس - كلان » اسم « التنين الكبير » .يرتدي هؤلاء الاعضاء الاقنعة ، ويحملون المشاعل ، ويقسمون يمين الولاء لـ «التنين الكبير» ، ويحلفون بان يقهروا

الزنوج ، ويدمروا المفكرين الاحرار ، وان يقيموا «النظام الحقيقي».

وثمة فاشستيون آخرون يعلقون الآمال على شركائهم الالمان ، الذين قهروا، ولكن لم تتم ابادتهم بعد. ان «العصبة الجمهورية الالمانية-الاميركية» - التي يتزعمها شخص يدعى كورت ميرتينغ - تطلب من الرئيس ترومان ان «يمنع مذبحة ستة ملايين من الوطنيين-الاشتراكيين في الريخ». وقد وقفت جريدة «بروم» (سان ديبغو) ، ووكالة « بيونير نيوزسرفيس » (شيكاغو)، جهدها على اعادة الهتلرية الى عهدها السابق . ويتساءل المرء ، عند قراءة بعض الصحف الاميركية ، ترى من الذي كان قاضيـــاً في نورمبرغ ومن الذي صدر عليه الحكم ؟

كثيراً ما يتحدث الرجعيون الاميركيون عن «نهضة المانيا»، ولكن ليس الشعب الالماني هو الذي يهمهم . انما يهمهم اعادة العسكرية البروسية و «الخوذ الفولاذية». ان الفاشستية والرجعية تجدان ارضاً خصبة لدى الاميركي الوسط، نظراً لانحطاط مستواه السياسي الى درجة السذاجة. فالناس محيطون علماً بالحياة الداخلية لهذا الشيخ او ذاك، ولكنهم خلبون من العلم بالمسائل الاقتصادية او بقضايا العلاقات الدولية. وغالباً مـا يقرأ المرء في الصحف الاميركية ان وجود حزبين هو ضمانة الديموقراطية الحقيقية. ومع ذلك فان احداً لا يستطيع بيان الفرق المبدئي النظري بين هـذين الحزبين، ولا بيان ما يتميز به الجمهوري في الشمال عن الديموقراطي في الجنوب. ان الاميركي الوسط لا يدهشه قط ان يرى انصار العزلة بالامس، يطالبون اليوم بحق المراقبة على الشؤون الداخلية لمختلف الدول الاوروبية. انه يعتبر نفسه الممثل الحقيقي للديموقراطية، ويجهل ان حكامه يدافعون بالرشاشات عن الفاشست في تريستا، ضد الديموقراطيين. الاميركي الوسط مقتنع بانه مستقل ، وهو يخاف «الدعاية» خوفاً ازرق. الا انه، في الحقيقة، يردد ما قرأه في الصحف ، وما سمعه في الراديو، وما رآه في السينما .

الفصل الخامس والعشرون

الصحافة والراديو والسينما في قبضة مختلف التروستات ، بـــل قد تكون في ايدي مشاريع فردية جدية او غير جدية .

قال لي مدير احدى الصحف الكبرى في الملحقات ، وهو يتنهد : « نحن مستقلون ، ولكننا تابعون للاعلانات . فاذا فقدنا هذه لم نقدر على البقاء غير اسبوع . » ومحطات الاذاعة ملك خاص ، وليس يمكن ان تعيش الا باعتمادها على الاعلان .

ان حاجة الاميركي الى النسيان ، والتسلي ، والاحلام ، قد ولدت صناعة كاملة . ان هوليوود تصنع احلاماً ـ نمطية ، بالسرعة نفسها والضبط نفسه اللذين تصنع بهما شيكاغو علب اللحم المحفوظ . والسينما ، في نظر ملايين الاميركيين ، هي قليل من الضحك ، وقليل من الزفرات ، وجمال النجمة . اما في نظر مئة من الرأسماليين فهي اقساط من الارباح . ان الناقدين السينمائيين يذكرون تاريخ هذا الفن الحديث ، انهم جميعـــاً ، يعرفون شابلن وماموليان وميليستون . ومن الاحتمالات الضعيفة ان يكونوا قد سمعوا بدافيد تيرنو ، الذي صرح منذ وقت طويـل : « في العام الماضي ربحنا ١٩ مليون دولار . ومنذ اليوم لن تكون السينما مرتبطة بالمخرج او الممثل ، بل بالمهندس» .

ان مصنع الاحلام اشد خطراً من مصنع لحم الخنزير المحفوظ . ان المنتجين في ذلك المصنع يكونون العـــالم الداخلي للاميركي الوسط ، ويلقحونه بمصل اخلاقي ، خفيف ولكنه فعال ، ويسيرون مشاعره وافكاره . في وسع مقاولي هؤلاء المنتجين ان ينافس بعضهم بعضاً . ولكنهم ملزمون

باحترام الرقابة الداخلية ، فيما بينهم ، هذه الرقابة المسماة «هيبس» ، والتي تنفي كل ما هو مشبوه ، قليلاً او كثيراً ، بحمل فكرة حرة . ان «هيبس» هو اب «قانون الاخلاق السينمائية» الذي جاء في بعض احكامه ما يلي : « لا يجوز ان يتخذ قانون ما موضعاً للسخرية ، ينبغي ان لا تكون مخالفة احد القوانين مثاراً لاي عطف . يجب ان يكون العقاب على الجرائم حسب خطورتها كيلا يقوم السخط على القوانين وعلى العدالة. يجب حماية الدين من النقد . لا يجوز ابداً اظهار احد رجال الاكليروس متلبساً بجريمة او موضعاً لسخرية » ...

ولقد ظلت هوليوود ، رغم هذا « القانون » ، اشبه بفزاعة للقسس وانصار الاستعباد . فاذا لم يجر منتجو الافلام على احترام رجال الكهنوت انطلق هؤلاء، في الوف الكنائس ينزلون اللعنات على هوليوود كما تنزل على «الوسواس الخناس» او على «مصدر الشر». اما الاذكياء منهم فقد تصالحوا مع مدينة السينما ، واتفقوا على انتاج افلام مستوحاة من التوراة ، كشمشون ، ومعجزة يشوع ، وقابيل ... وقد رأيت على باب احدى الكنائس الاعلان التالي : « قريباً تتاح لابناء رعيتنا الاعزاء الفرصة للاعجاب بـ « غاري غران » الممثل الكبير ، في دور آدم ، و «انغريد بيرغمان» الشهيرة ، في دور حواء ، والاثنان مجتمعان في فيلم ملون عن «السقوط الاول». ومن المؤسف ان ليس في الاعلان ذكر لمن سيقوم بدور الافعى ، « بورا (١) » ام « بيتون (٢) » ...

ان الفن ليربح المعركة في النهاية ، ما في ذلك ريب . ان هوليوود تشغل عشرات من الرجال البواسل الزاخرين بالمواهب ، ولكن هؤلاء جميعاً محاطون بجدار من التحرز والحقد . لقد دفع شارلي شابلن جزية

١ – ٢ – نوعان من الافاعي الضخمة. (المعرب)

مرة في نضاله ضد دنيا المال . فتلقى الشتائم والاهانات ، وجرت محاولة للقضاء عليه . . ولكنه استمر في عمله واما الصحافة القادرة على كل شيء، واما القسس الموجودون في كل مكان ، فقد اضطروا جميعاً للاضمحلال والتلاشي امام مجده وعبقريته .

ومع ذلك فكم تحطم من الكفاءات الفنية في مصنع الاحلام ؟

ان ملايين من الناس لا يزالون يعجبون بالنجمة، ولا يزالون يتابعون الضحك والتنهد ولا يزالون يحلمون ، دون ان يدركوا ان ضحكهم ، وتحسرهم ، واحلامهم ، مصنوعة وفقاً لقواعد مقررة بشكل دقيق.

●

الفصل السادس والعشرون

كثيراً ما كنت التقي بممثلي الصحافة ـ ناشرين، ومديرين، وصحافيين. ولقد زرت عدداً من هيئات التحرير، فعرفت كيف يكونون الرأي العام. انه عمل عظيم الخطورة ، وهو مركز في ايدي التروستات الكبرى.

فكيف يصنع الرأي العام ؟ انه لا يصنع ابداً بالمقالات ـ فليس لدى الاميركي وقت لقراءة الافتتاحيات. وهو، من جهة اخرى، لا يكترث بـ «الدعاية». لقد كانت اكثر الصحف تحارب روزفلت، ولم يمنعه هذا من ان يعاد انتخابه اربع مرات . فقد كان نشاط المرحوم روزفلت يجري على مرأى ومسمع من الجميع . وكان في وسع جميع الاميركيين ان يحكموا على اعماله ، كما كان الرئيس الراحل وانصاره يشتركون في الوف الاجتماعات، ويدحضون فيها مدعيات الخصوم. عندما كنت اصرح لاصدقائي الاميركيين بان الصحافة تشوه عقلية القراء، كانوا يجيبونني : «انك

تبالغ في اظهار اهمية الصحف. تذكر انتخاب روزفلت... ان الاميركي لا يسلم قياد نفسه، وليس للدعاية اي تأثير عليه، انه معتاد على التفكير المستقل».

ولكن من اجل ان يفكر الانسان – تفكيراً مستقلاً او غير مستقل – لا بد ان يكون لديه ما يفكر على اساسه. لقد كان الاميركي الوسط يعرف سياسة روزفلت المالية. ولكنه، بالعكس، كان يجهل كل ما يتصل بحوادث ايران او المانيا او بلغاريا. انه يفكر «تفكيراً مستقلاً» في اكاذيب الصفحة الاولى من جريدته. وبما انه ليس برجل احمق، وبما انه يريد ان يبقى مستقلاً في استنتاجاته، فهو يتساءل اذا كان الروس يحسنون صنعاً او يسيئون في قذف دباباتهم على طهران، او اذا كان البلغار على صواب ام لا في رغبتهم بالاحتفاظ بجبال رودوب اليونانية. الا انه لا يعرف شيئاً عن هذه المسألة التي يريد حلها. بل هو لا يذهب بظنه الى ان الدبابات السوفياتية لم تزحف ابداً نحو طهران، وان ليس في الرودوب البلغارية اي يوناني...

ان الصحف ملك التروستات الضخمة، وللوك الكلام المطبوع الذين يشوهون الحقائق تحت ستار نشر الانباء. انهم يتظاهرون بالحياد والتجرد. مثال ذلك، انهم بعد ايراد عشرة انباء معادية للاتحاد السوفياتي واردة من انقرة وبودابست وفيينا وتريستا وبونس ايرس وهلسينكي ومونيخ وطهران وشنغاي وستوكهولم، يظهر فيها عشرة اختصاصيين في فن التشويه ان روسيا تريد ان تلتهم العالم كله، بما فيه غواتمالا وهونduras، – بعد ايراد هذه الانباء العشرة ينشرون نبأ واحداً يثني على ابحاث عالم نباتي سوفياتي، او يطري مهارة المتزلجين الروس. لقد طلبت الي عدة صحف، من الصحف التي كانت تنشر الفظاعات الحمقاء عن الاتحاد السوفياتي، ان اكتب لها مقالات، وقد نشرتها بالفعل.



قد تكون جريدتان ملكاً لدار واحدة او لشخص واحد . اما في الانتخابات فتؤيدان
مرشحين مختلفين طالما هما يجران عربة التروستاب الضخمة التي تقود ملوك
الكلام المطبوع بنفس الكرباج الذي تقود به المرشحين.

وطلبت مني صحيفة كبرى مقالا في موضوع معين ، او في موضوع اختاره اذا شئت . واخيراً عرضوا علي الاقتراح الطريف التالي: «اكتب مقالا في الموضوع التالي : «لماذا لا تريد ان تكتب لنا؟ » . اما القارىء الموغل في التيه ، فسيكرر القول : « انك تستطيع ان تكتب ما تشاء ، ان صحافتنا هي اكثر صحف العالم نزاهة وحياداً ! »

ان صحف نيويورك يكاد ينحصر بيعها في نيويورك وحدها . فلكل ولاية جريدتها . و كثير من هذه الصحف ملك للتروستات .. وقد تكون جريدتان ملكاً لدار واحدة او لشخص واحد . اما في الانتخابات فتؤيدان مرشحين مختلفين ، ولكنهما تدافعان عن سياسة واحدة في الاساس .

يمكن التمييز بين الصحف الرزينة والصحف الخفيفة المهيجة ، بالنظر الى قرائها . فالنيويوركي الرزين يقرأ «النيويورك تايمس» او «هير الدتريبون» . والتشويه في هذه الصحف ينظم على قواعد متينة . مراسلون محنكون ، وسرعة في ارسال اطول البرقيات . ادارة التحرير اشبه بمصنع كبير . والمحررون من ذوي المكانة الرفيعة : نقاد ادبيون وموسيقيون واقتصاديون وديبلوماسيون . والصحف كبيرة الحجم ، ففيها الكثير من المقالات حتى ولو حذفت منها الإعلانات . واما اعداد الآحاد فهي من الضخامة بحيث تكون اقرب شبهاً الى الحزمة الثقيلة .. ومن العادة ان يكون الفهرس على الصفحة الاولى . فيعرف الاميركي منه ان رسالة روما على الصفحة الحادية عشرة ، وان نتيجة مباراة كرة القدم في الصفحة السابعة ، واخبار البورصة في الثالثة والعشرين . وجميـــع المقالات والرسائل مكتوبة للجريدة خاصة . السطر الاول يوجز ما في الاسطر التاليـــة ، وهو في الصفحة الاولى . وبهذه الصورة يمكن للاميركي المستعجل ان يلم بمـا في صفحات الجريدة الاخرى ، بالاطلاع على مـا في الصفحة الاولى . امـا

اسلوب الصحف الخفيفه فهو على شيء من الشذوذ . لنأخذ الصحافي « لاين » : ان مقالاته اليومية – المنشورة دائماً مع صورته – تصدر في خمسين جريدة كل يوم . انها مجموعة ثرثرات كريهة – اي شخص تعشى مع اي شخص ، وفي اية ساعة ، والى اي رقم بلغ مصروف العشاء ، وكيف ابتسم الشيخ الفلاني للحسناء الفلانية ، وهلم جرا . وطبيعي ان هذا كله ينشر حسب خطة مرسومة . فينبغي « دفع » فلان ، او بالعكس ، تهدئ فلان آخر . كنت اتصفح احدى صحف برمنكهام ، فوجدت في الصفحة الاولى صورة ضخمة لاحدى الفتيات . ولما كنت اعرف عادات البلاد قلت لنفسي : ينبغي اما ان تكون هذه الحسناء قد قتلت احداً او تزوجت ملك « العلكة » . لم يكن ثمة شيء من هذا . وكل ما في الامر انها ذهبت الى هوليود ، آملة ان تصبح نجمة ، وقد اصبحت حاملا . وليس في ذلك امر خارق للطبيعة ، ولكنها مع ذلك تشرفت بالصفحة الاولى . وحتى الصحف اليومية الرزينة تنشر ، مرة في الاسبوع على الاقل ، صور فتيات وجدن خاطبات اغنياء . اما الاقل سعادة ، فينظرن الى هذه الصور ، ويرسلن الزفرات ، ويعشن بالامل . وقد قال لي بعض الاميركيين بان في هذا « دعامة لفكرة التفاؤل في الحياة » .

ان المخبرين والمراسلين هم اناس نشيطون .

فما كدت اهبط من الطائرة حتى انهالوا عليّ : «هل تحب اميركا ؟» ، فاجبتهم باني لم ار احداً بعد غير رجال الجمرك ورجال الصحافة . فتولتهم الدهشة : « كيف ! الم تهيء النص ؟ » ولقد حدث ، في الواقع ، ان بعض الصحافيين الاميركيين كانوا يجيئون لزيارة روسيا ومعهم كتاب مهيء سلفاً – في رأس بعضهم ، وفي محفظة بعضهم الآخر ...

ان المزاحمة بين الصحف ، وبين وكالات الانباء تدفع المخبرين ، لا الى

ان يكونوا مختلفين وحسب ، بل ان يكونوا اهل خصام ونزاع ايضاً . وغالباً ما يستأجر مراسل احدى وكالات الانباء ، لعدة ساعات ، جميع غرف التلفون في المكان الذي هو فيه، لكي لا يتمكن مزاحمه من ارسال النبأ . وثمة حالات تخرب فيها دواليب السيارة او يضاف فيها الى البنزين كمية من الماء ...

جاء مخبر جريدة نيويوركية هامة الى الخياط الذي كنت اخيط عنده بذلتي ، دون ان يعلم بمجيئه احد . وفي اليوم التالي وجدت صورتي في الجريدة وانا اقيس بنطلوني . وكان المقال الذي يرافق الصورة يعالج مسألة خطيرة : لماذا افضل الازرار على السحاب الحديث ؟ وحين لقيت هذا الصحافي سألته عن الاسباب التي دعته الى نشر مثل هذه السخافة . فأجاب : « في هذا فائدة للناس ». ولما لم يكن في الجواب ما يرضي ، فقد رددت عليه بتهكم : « اجل ، للقسم الاسفل منهم ». فضحك، وقال وهو يحسب انه يمدحني : « ان لديك روح النكتة الاميركية ».

لقد حفظت بعض الاسئلة التي وجهها الي مخبر احدى الصحف الكبرى . وها انا اوردها حسب الترتيب الذي جاءت فيه :

« هل ترتدي بذلة اميركية او مسكوفية ؟ »

« هل يعرف الشعب الروسي بان اميركا قد ساعدته اثناء الحرب ؟ »

« ماذا يعمل اهالي موسكو للحصول على آخر اسعار البورصة ؟ »

« هل انت متزوج من وقت طويل ؟ »

لماذا لديكم حزب سياسي واحد لا حزبان ؟ »

« هل تستيقظ متأخراً ؟ »

« لماذا تريدون ان تستولوا على البانيا ؟ »

اني لعلى ثقة من ان القارىء الاميركي يكاد يكون دائماً اكثر ذكاء

من جريدته . ولكن ليس يمكن ان يبقى الانسان نظيفاً وهو يتمرغ في القذارة . ان قارىء الجريدة البلهـــاء يصبح هو نفسه ابله . في الامس الاول كان مأخوذاً بتجارب القنبلة الذرية . وبالامس اصبح يقول ، بعد ان عرته الخيبة ، ان جيلدا (اسم القنبلة) اصبحت اضحوكة . اما اليوم فهو حزين لوفاة الاماعز وصغار الخنـــازير في تجربة القنبلة . وقد انبأته الصحف ان في النية رفع نصب تذكاري لهم . فلم يعد يفكر بان اطفاله مهددون بالموت عن طريق « جيلدا » ثانية .

الفصل السابع والعشرون

خاطبني احد المزارعين في وادي تينيسي قائـــلا : « لا سبيل الى التفاهم مع الروس . وسنكون مضطرين لاعلان الحرب عليهم » . ومع ذلك فان هذا الرجل من المسالمين ، فهو غارق في بقراته الى قمة رأسه . حينما جئت لمقابلته وجدته يحلبها كهربائياً . اما المنظر فليس بديعاً ، واما دقة العمل فنافعة ، ويتوفر للمزارع وقت طويل . فلا عجب ، بعد هذا ، اذا ما قرأ جريدته ، « نوكسفيل – جورنال » ، من اول سطر فيها الى آخر سطر ، هذه الجريدة التي تحبط ، في كل يوم ، آخر مؤامرات الاتحاد السوفياتي . فالروس ، حسب اقوال هذه الجريدة ، يستولون على ايران حيناً ، وعلى تريستا حينـــاً آخر ، او يضعون يدهم على كوريا . وهذا المزارع المسكين ، البارع في حلب البقر اكثر مما هو بارع في الجغرافيا ، يقرأ ويعجب : « ما اسوأ هؤلاء الحمر اذن ! » ، ولقد قرأ ، دون ريب

المقال المنشور في ١٨ ايار ، والذي جاء فيه ان موسكو ليست موسكو ، بل هي ماشاك المذكورة في التوراة ، وليس الاتحاد السوفياتي غير ماجوج الذي يتحدث عنهـا النبي حزقيـال . « ينبغي تدمير قلعـة الشيوعية ــ الماجوجية » . ومثل هذه النداءات يطيش لها صواب مزارعين آخرين غير مزارعي وادي تينيسي . قامت « مؤسسة الرأي العـام » بالتحقيق التـالي ، في اذار ١٩٤٥ : « هل تعتقد بان اميركا ستشترك في حرب خلال الخمسة والعشرين عاماً المقبلة ؟ » وقد اجاب ٤٥ بالمئة بالنفي . وبعد عام ، في اذار ١٩٤٦ ، لم ينـل السؤال نفسه غير ١٩ بالمئة من الاجوبة السلبية . لقد تذكرت اغنية اسبانيولية قديمة :

يعرف البعـض ما يغنون ويغني البعض ما يعرفون

ان مزارعي تينيسي يغنون ما يعرفون ، ولكن ناشر جريـدة « نو كسفيل » ، ومختلف التروستات ، ومختلف السياسيين ، وديموقراطيو الجنوب ، وجمهوريو الشمال ، ان هؤلاء السادة جميعـاً يعرفون تماماً ما يغنون .

يقرأ الاميركي الوسط ، كل يوم ، ان دولا اخرى تريد باميركا شراً . فيتنهد المزارع ، والمحاسب ، والصيدلي : « لقد خدعنا مرة اخرى » . ان الدهشة لتستولي عليه حين يعلم ان الولايات المتحدة تملك قواعد عسكرية في مختلف اجزاء العالم . ولكن الدهشة تزداد ايضاً : « لماذا يقيم الروس في بودابست ؟ » الا انه يجد من الطبيعي ان يكون الاميركيون في فرانكفورت ونابولي واوكيناوا ، وطوكيو ، وسيؤول ، ومانيلا ، ونوميا ، وفي اسلنـدا ، وجزر آسور . ان الاميركي الوسط لم يستيقـظ باكراً ليرى ولادة الاستعمار الاميركي ، فهو لا يزال يتمتم بما اعتاد عليه : « اننا لا نحتاج شيئا قط ، غير الطمأنينة في الولايات المتحدة » .

يذكر الأميركيون غالبـــاً « الستار الحديدي » الذي يزعمون ان الاتحاد السوفياتي احاط نفسه به. وعلي ان اعترف بان هذا الستار موجود وانه يمنع الاميركي الوسط من رؤية ما يجري في روسيا السوفيـــاتية . ولكنه مصنوع في الولايات المتحدة ـ في ادارات تحرير الصحف، ومحطات الاذاعة ، وفي مكاتب منتجي الافلام .

ان كثيراً من الصحف الاميركية تضلل قراءهـا ، يساعدها في ذلك مراسلوها الخاصون . فكيف يتيسر للاميركي الوسط ان يتحقق من صحة خبر يتعلق بهنغاريا او بلغاريا ؟ انه لا يعلم حتى اين يقع هذان البلدان . ان صوفيا بعيدة ! اما انا فقد كنت بين ظهرانيهم : فلم يمنع ذلك نشر اقبح الاكاذيب عني . ذهبت وسيمونوف الى بوسطن. كان في المحطـــة مخبرون ينتظروننا لالقاء اسئلة ستاندرد علينا . وقد اجبنا عليها بكل امتثال . واثناء ذلك طلب الينـــا اميركي ، عضو في « مجلس الصداقة الاميركية ـ السوفيـاتية » ، ان نقطع الحديث ، لان اجتماعاً صحافيـاً سيعقد بعد ساعتين ، ولا بد ان يستاء الصحـــافيون الذين لم يستطيعوا الحضور الى المحطة ، اذا ما اعطي الحديث كله الى منافسيهم . وبعد ذلك ببضع ساعات صدرت اكبر جريدة في بوسطن تحمل في صفحتها الاولى صورة: « اهرنبورغ وسيمونوف في بوسطن » مع عنوان ضخم: «القنصل السوفياتي يمنع الكاتبين الاحمرين من اي اتصـــال بالصحافة المحلية » . ولنضف الى هذا ان ليس في بوسطن قنصل سوفياتي ، ولم يكن يرافقنا احد . فذهبنا لمقابلة رئيس التحرير وطرحنا عليه السؤال : « لماذا نشرتم هذا الخبر الكاذب ؟ » فاجاب : « انه سوء تفـاهم . لقد جاء بكم عضو في « المجلس » (كونسيل) فغلط المخبر و كتب « قنصل» (كونسول) . وكانت الصحف تذيع ان مندوباً عن « الغيبيو » يصحبني اثنـاء جولاتي

في اميركا . اجل لقـد كان هنالك من يرافقني ، ولكنه المستر نلسون مندوب الحكومة الاميركية . وقد حولته الصحف الى شرطي سري سوفيـاتي » . وفي الحديث عن رحلتي في اميركا ، كتبت مجلة « تايم » غاضبة تقول: «لقدكان يتمتع بحرية،عبثاً يحلم بمثلها مراسلونا في موسكو». هذه العبارة وردت في الصفحة ٧٠ من العدد الثـالث والعشرين . وقد قرأت في الصفحة الثلاثين من العدد نفسه انالصحافي الاميركي جون فيشر قام ، بمفرده ، بسفرة خلال اوكرانيا دامت ثلاثة اشهر . من العسير القول ما هي الحرية التي كان يحلم بها المستر فيشر في الاتحاد السوفياتي . لعلهكان يأسف لخلو رحلته من رفيق. اما انا شخصياً فاني لشديد الامتنان للحكومة الاميركية من اجل العنـايـة التي احطت بها، لاسيما وقد كان المستر نلسون رجلا وافر الثقافة والتهذيب. ولكن كيف السبيل الىفهم « مجلة تايم » ? عندما يرافق ممثل لوزارة الخـارجية السوفياتية صحافياً اميركيا، ينفجر الصحافي : لقد سلبوه الحرية. اما حين يرافق ممثل الوزرة الخارجية الاميركية صحافيـاً سوفياتياً ، فان مجلة « تايم » تصرح بان الصحافي الاميركي لا يحلم بمثل هذه الحرية في موسكو ! او هذا المنطق يظل مغلقاً علي ، بل ، بالاحرى ، اني لا فهمه كل الفهم .

لقد كان اصدقاء اميركيون يسألونني : « ما العمل الواجب لتحسين العلاقات بيننا ? » فكنت اجيب : « اقامة مقياس واحد » . ولا يحسبن القارىء اني كنت اقترح على الاميركيين القاعدة المترية . فليس بي رغبة الى التدخل في شؤونهم . لئن كانوا يفضلون الحساب بالبوصه او بالميل ، او اعتبار الماء يتجلد في الدرجة ٣٢ ، فذلك شأنهم. ولكن من الضروري وجود مقيـاس واحد لتقدير الوقائع والمواقف . ولقد طالما وجدت في اميركا وزنين ومقياسين. واحد للانكلوسكسون الاخيار، واخر«للحمر»

الاشرار. فايز لنداء، التي عمدتها اميركا قاعدة طبيعية، «هي ضمانة للسلامة العالمية».
اما حين لا يريد الاتحاد السوفياتي السماح بان تكون الاقطار المحيطة به قواعد للهجوم عليه في المستقبل، فذلك هو « الاستعمار الاحمر » . وصنع القنابل الذرية – لعبة صغيرة بريئة من طراز كرة القدم . اما اذا لعب بكرة القدم فريق من الجيش الاحمر، فتلك استعدادات للاستيلاء على العالم.

تحدث الي صناعي كبير ، وهو عدو لدود للاتحاد السوفياتي، فقال بكل صراحة : « ليس في نيتنا ابداً ان نقوم بالحرب ، ولكننا سنظل نتحدث عنها . ليست سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية هي التي تهددنا ، انما يهددنا مستقبل هذه السياسة . ونحن لا نستطيع ان نسمح لكم برفع مستوى حياتكم ، لاسباب تتعلق بسياستنا الداخلية . »

ان الذين يقومون بالحملة على الاتحاد السوفياتي، لا يحاربون الدبابات السوفياتية بل الطناجر السوفياتية . وهم يريدون وقف تحرر العمال الاميركيين لا وقف الفرق العسكرية السوفياتية. هذا هو تفسير الدعاية الكاذبة عن « الحرب العالمية الثالثة » .

●

الفصل الثامن والعشرون

لقد انفقت في اميركا مبالغ ضخمة من الاموال لانقاذ الخائن ميخائيلوفيتش من الموت. ورفعت عريضة وقعها صحافيون سمو انفسهم « معادين للفاشستية » . واما زعيم السفاحين البولونيين « الجنرال بور » ، فقد استقبل بمجالي التكريم. وتطالعك الصحف بالثناء العاطر على شوشنيغ وموسوليني ، وبقصائد المدح ترفع للجنرال فرانكو . ان المضاربين من

اصحاب التروستات لا يبـــالون بجماعة ميخائيلوفيتش ولا « بكتائب » فرنكو ولا بكبار الملاكين البولونيـين ، انهم مستعدون حتى لتجنيد الاشباح ضد شعبهم. فالرجعية تقوم الان بالهجوم. لقد كنت في الولايات المتحدة في العهد الذي كانت فيه الاضرابات الكبرى تهز البلاد: اضراب عمال المنـاجم ، واضراب عمال السكك ... وكان الرجعيون يثيرون المزارعين ضد العمـال . لقد اعلن حق الاضراب عام ١٩٣٢ . وفي عام ١٩٤٦ الغي هذا الحق، عن طريق الرجعيين الذين تملكهم الهلع. ان فوز الجمهوريين في الانتخابات الاخيرة قد اعطى الاساس القـــانوني لانتصار الرجعية .

ومع ذلك فلست اعتقد ان النصر سيكون لقوى الشر في النهـاية . صحيح ان الاميركي الوسط ليس له النضج السياسي . فهو لم يشعر بشيء حين غير زعماؤه اتجاه عربة الدولة . انه يعتقد بكل سذاجة ان الرجعيين يتـابعون عمل روزفلت . وهو لا يعرف اوروبا . والعـالم ، في نظره ، محصور بين المحيطين . ان الاميركي الوسط ساذج . هو يعتقد انه حامي ذمار الديموقراطية ، وانه اكثر النـاس مسالمة ، واكثرهم ثقـافة ، وانه المسيحي الصالح ، المتمسك باهداب الاخلاق . ويعتقد ايضـاً ان القنبلة الذرية ليست بين يديه ، الا غصناً من الزيتون . الا انه ، مع ذلك عالي الهمة وذو حدث سليم . ولم يتلق دائماً التربية الصـــالحة ، وهو مسمم الافكار بالاباطيل العرقية ، ويتعبد للدولار ، برغم ان القسيس يشجب عجل الذهب . ربما كان الاميركي الوسط على شيء من الغرور ، الا انه ليس بغبي ولا شرير .

انه لا يريد الحرب . فالبـلاد غنية ، خصوصاً اذا قورنت باوروبا المدمرة ومعـامل ديترويت تشتغل الى الحد الاقصى من قدرتهـا — ولا

تسد جميع الطلبات . ويسجل الناس اسماءهم للحصول على براد، اومكنسة كهربائية ، او راديو . ان اميركا لم تعرف الحرب . والمزعجات الصغيرة في اوروبا ، تبدو لها كانها حرمانات كبرى : « الزبدة لا تزال قليلة ... ويحتاج المرء الى ان يأكل زيادة من لحم الطيور . لا يوجد لحم بقر ... لا بد من الوقوف في الصف للحصول على جرابات نايلون ... لا سبيل الى الحصول علي قميص ابيض ، وليس هناك غير القمصان « الملونة » لقد عاد المسرحون من الجيش . انهم يفتشون عن مكان تحت الشمس . هم يهاجرون من ولاية الى اخرى . ويغيرون مهناً ومدناً . الاضرابات تترى . الاسعار تصعد . هذا لديه كثير من المال ، وذاك ليس لديه ما يكفيه . المخازن الفخمة تغص بالزبائن . اما الدكاكين الصغيرة فخاوية . ان بيع حذاء بثلاثين دولار اسهل من بيع حذاء بثلاثة دولارات . ان الوضع يشبه حفلة تدشين، او بداية السنة المدرسية. الناس يفكرون بالغد مبتهجين ، اما الامس ففي طي النسيان ، واما ما بعد الغد ... فيفضلون عدم التفكير فيه . وحين تخطر لهم ، في القليل النادر ، فكرة الازمة المحتومة ، او البطالة ، يكون نصيبها الطرد . فما من حاجة الى تنغيص القلب قبل ساعة او سنة من وقوع الكارثة . ويعرف الامير كيون هذا الانتقال المفاجىء من الغنى الى الفقر ، فلا يكترثون له. وقد اصبح لديهم نوع من الفلسفة الجبرية ... الحياة كما هي ...

لقد كان روزفلت يمثل خير ما في قلب الامير كيين: ودهم، واخلاقهم وتعطشهم الى السلم ... كان رجل دولة كبير ، وكانت شخصيته بمثل رحابة بلاده . ولقد شعر الامير كي ، بعد وفاة روزفلت ، بانه قد ترك وحيداً . انبثق ، من كل ناحية ، سياسيون صغار . وبدأت الصحف تتحدث عن « حرب عالمية ثالثة » .كل ذلك بعث الاضطراب في الامير كي

الوسط . وكان مستاء من عدم تجانس الديموقراطيين، فصوت للجمهوريين رغم اتهامه لهم بانهم مثل الاولين . واني لاكرر القول : ان الاميركي الوسط طفل في السياسه ، وليس لديه مجال للاختيار ... ولكن من هنا كان الظن بانه غير قادر على التفكير وعلى ان تكون له مشاعر ... ان لسرعة التصديق عنده حدوداً . فهو قد يصوت للمهوشين المضللين الذين يصرخون « الى الحرب الوقائية » ، ولكن اجباره على القيام بهذه الحرب سيكون امراً اشد صعوبة .

•

الفصل التاسع والعشرون

كانت حاشية روزفلت تتألف، لا من رجال شرفاء وحسب، بل من مفكرين يفهمون ايضاً سير التاريخ . لقد توصلت التروستات الى تنحية هؤلاء الرجال عن مراكزهم ، بمؤامرات حاكتها خلف الكواليس .

ويتم الفرز والتقسيم شيئاً فشيئاً. وتجذب الاجتماعات الشعبية التقدمية الوف الرجال . والعمال الاميركيون يفكرون في مهمتهم التاريخية ، ودعائم النقابات التقدمية تتوطد ، ويدنو عهد المهوشين والمغامرين من نهايته . ان اميركا تكبر. وما انا بمتحدث عن ناطحات السحاب فيها ، بل عن مفهومها الانساني . وينمو ، من عام الى آخر عدد الاشخاص الذين يدعون « تقدميين » بصورة غامضة. ان هؤلاء هم الذين يطالبون بالحقوق الانسانية للزنوج ، ويسخرون من الاوهام ، ومن الرياء ، والحقارة ، ويشجبون تأييد فرانكو . وهم الذين يريدون اجتثاث جذور الفاشستية

من المانيا وغيرها . وهم الذين يهتمون بثقافة الشعب السوفياتي . بديهي انهم اقلية ، ولكنها اقلية تفكر ، وتناضل وتبحث عن الحقيقة . ان هؤلاء الرجال يرون سلامة اميركا ، لا في ان يكون لدى الروس كمية اقل من الطناجر ، بل في ان يكون لدى كل اميركي فكر عميق وشعور سليم ، الى ما عنده من طناجر .

•

الفصل الثلاثون

في اميركا ، عدا رجال الاعمال ، عدد غير قليل من الحالمين السذج والمثاليين النبلاء. تعرفت في الجنوب الى مهندس، وهو مخترع ذو نصيب من الشهرة . لقد رفض في الماضي مبلغاً ضخماً من المال، ثمناً لآلة اخترعها لقطف القطن ، خشية ان يؤدي هذا الاختراع الى دمار مئات الالوف من العمال . وما يزال يهب وقته وماله لقضيـة السلم . ورأيت في ولاية تينيسي طوباويين لا يذوقون طعاماً ولا رقاداً ، لصرف آخر مواردهم في اعداد مشروع خيالي لـ « حكومة عالمية » وثمة حلقة من المهووسين ، في مدينة اخرى ، يؤمنون بامكان الوصول الى ازالة شرور القنبلة الذرية بواسطة لغة عالمية (اسبرانتو) مجددة . وفي مئـــات من المدن منظمات تناضل من اجل المساواة بين العروق . لقد ذكرت ، في كتـابي هذا ، كيف يتبرع اميركيون موسرون بالوف الدولارات، بخيـــلاء . فمن الظلم ان لا يذكر هنا الفقراء الذين يتخلون عن زوج احذية لارسال هدايا الى الاطفال اليوغوسلافيين . ففي هذه البلاد الرحبة الجديدة ، تستطيع

العين ان ترى الى جانب الوقاحة القاسية ، نزعة انسانية كبيرة جداً .

لقد برزت النخبة المثقفة الاميركية الى الوجود . انها ما تزال ضعيفة، وليس لها كثير من الثقة في نفسها . ويخيــل الي انها تخشى الاعلانات المضيئة، والموسيقى الصاخبة في المقاصف، والمواعظ التجارية، والاذاعات المأخوذة من التورات . انها لا تزال تحصر نفسها في السلبية وفي نوع من الكآبة التي اسميها تشيكوفية ، وتتجلى عزلتهــا احيانا في ابتسامة او في طوباوية. لقد رأيت في الارياف مثقفين ينكرون استهتار وسطهم وجفافه، فيصلون الى السوداوية ، وينكفئون الى داخل اصدافهم ، وينتهون الى اغراق خيبتهم في الخمر .

لقد سئموا السماء ، مع اعلانها المضيء ، « كوكا ــ كولا » ، وهم الان ، كبعض ابطـال تشيكوف ، يتابعون احلامهم بحياة افضل تحت سماء مرصعة بالنجوم .

انهم مستعدون لتوقيع بيان من اجل انشاء « دولة عالمية » ، ويمكن ان يهبوا كل ما لديهم لاي مخبول او مغامر. وهم مأخوذون بروايات ميلر وسارتر وسيلين ، ويودون لو يبصقون على الحياة ويحرقونها ، لانهم يرونها بصورة شخص استغلالي يكشر عن جميع انيابه الشوهاء .

ولكن عدد الشجعان بين المثقفين الاميركيين يزداد باطراد . فهم يدركون ان السلامة ليست في الفرار من الحياة ، ولا في العزلة ، بل في شيء آخر . يدركون ان الواجب يقضي برفع العالم الروحي للاميركي الوسط الى مستوى التكنيك الذي يحيط به، من المهد الى محرق الجثث.

•

الفصل الواحد والثلاثون

ان جميع مظاهر الثقافة الرفيعة موجودة في اميركا . لقد زرت مدناً جامعية ، ورأيت مخابر قائمة في الحدائق . ولاحظت العناية التي يحاط بها العلماء ، وزرت معارض ومكتبات وشهدت حفلات موسيقية ...

ومع ذلك ففي استطاعتي ان اؤكد بان ثقافة اميركا الروحية لا تزال في دور التكون . وفي الغالب ، لا تزال نجوم العالم الجديد يقتصر عملها على الاشعاع بنور مستعار . ولكن بدأ يلتمع خلال هذا النور المستعار نور خاص. لقد اعطت السينما الاميركية روائع كبرى، الى جانب انتاجها الكثيف المطبوع بطابع مبتذل يثير الاشمئزاز . ان شارلي شابلن يتمتع بحب الناس في اجزاء العالم الخمسة. وقد شهدت عرض افلام بديعة، لفورد وميليستون وماموليان . وفي افلام « ماركس - برازرس » كثير من الدعابة البريئة . اما صور ديزني المتحركة ، فهي شعر يمكن ان يهز رجلا تخلو حياته من النواحي الشعرية .

ان هندسة البناء الاميركية على ما فيها من جفاف ، ومن بعد عن الانسانية احياناً ، مرتبطة بعصرنا هذا بروابط الدم . وهي ايضاً مساهمة في الثقافة العالمية .

اني لاضع في مكان رفيع جداً ، الكتاب الاميركيين : همينغواي ، وفولكنر ، وستينبك، وكالدويل وغيرهم . اما ما يدعو الى الدهشة فهو خلو الميدان من ادب متوسط شريف : ان هناك نحواً من عشرة اقطاب كبار ، والفاً من « منتجي سلع القراءة » . من هنا ، اسلوب همينغواي الفخم ، ومن هناك ، قصص الصحف اليومية البالغة من البلاهة والابتذال حداً ينفر منها حتى اقل القراء الاوروبيين ادعاء . ليس في اميركا بيوت

باربع او خمس طبقـات . وفي الارياف ، تعد البيوت الصغيرة بالالوف (شرفة مقعد سيار) مع قليل من ناطحات السحاب. هذه اللوحة ترى مثلها في الادب : رفيع جداً ، ووضيع جداً .

ومع ذلك، فليس الكتاب الكبار في عزلة عن العالم. انهم لا يعيشون خارج المجتمع ، بل هم مرتبطون بالشعب ، رغم ان الجماهير لا تقرأ مؤلفاتهم. ان الكتاب الفرنسيين المعاصرين يشوب آثارهم شيء من التجريد، فالفعل فيها تابع للفكر ، وهي تذخر بالتحليل ، ولا اثر فيها للمحيط . فان ابطال الرواية يلتقون، ويتناقشون، ويفترقون، ثم يلتقون من جديد، ويعودون الى النقاش . وليست هذه حال خيرة الكتاب الاميركيين : انهم ، اولا ، ابناء الحياة الواقعية : فقد عرفت كثيراً منهم . انهم ، في حياتهم ، شأنهم في مؤلفاتهم ، اشبه بدوح كبيرة عميقة الجذور . فمن العسير جداً ان تتكلم معهم في موضوع مجرد . ولكنهم محدثون بارعون . وفي وسعهم ان يحتقروا محيطهم ، ولكنهم يعرفونه . وسيرة حياة كل منهم رفيعة في الوانها . لقد مرت في حياتهم اشياء كثيرة . كان ستينبك عاملا زراعياً ، اما فولكنر فقد كان رساماً في الابنية وموزع بريد. انهم ليسوا بافراد يعيشون في عزلة بل هم رجال يعبرون عن مطامح شعبهم المكتومة واحلام قلبه الكبير الذي لا يستطيع ان يحل محله اي محرك خارق القدرة.

•

الفصل الثاني والثلاثون

تحتل اميركا مكاناً فسيحاً في حياة الانسانية ، فليس يمكن فهم عصرنا الحاضر دون فهم اميركا . لقد وجهت اليها مئات من المدائح ومئات من الاهاجي ـ فمن السهل الثناء عليها والسخر منها، ولكن من الصعب فهمها.

ان وراء التعقيد التكنيكي، يكمن احياناً قلب بسيط، ووراء هذه البساطة يكمن تعقيد انساني ملموس .

يكتفي الكثير من الاوربيين بالسخر من اميركا لهوسها الطفولي بالتكنيك . اما اليوم ، فان هؤلاء انفسهم ينظرون ، بكل مذلة ان نرسل اليهم آلة عتيقة، او ان تصلهم بذلة عتيقة الطراز من ابناء عمومتهم، الذين كانوا يسخرون بهم من قبل . على ان المجال ليس بمجال سخرية او ثناء . لقد سار تطور اميركا على غير الطريق العادية المألوفة التي سارت عليها اوروبا العجوز . بدأت فرنسا مع الكاتدرائيات الغوطية وشعر القرون الوسطى . اما اميركا — فقد بدأت مع حمى الذهب ، ومخازن الادوية ، والسيارات . فادركت سريعاً مستوى رفيعاً جداً من الثقافة المادية . انها تحمل الى الذهن صورة رجل ذي رأس صغير فوق جسم ضخم ، بعضلات ملاكم .

ومع ذلك، فان اميركا ليست عالماً جامداً، انما هي في حركة مستمرة ان طهريي (١) الامس اصبحوا اليوم منحلي الاعصاب، وابطالا في روايات همينغواي. ويقرأ ابناء المعمدانيين (٢) و«اهل الشريعة (٣)»، «النيويوركر» الجريده الهجائية التي تسخر من « الامريكة » . وبالجملة فانه يستحيل على اي اوروبي ان يسخر من اميركا بمقدار ما يسخر منها الاميركيون انفسهم وان هذا لضمانة تقدم ونمو . وانا موقن بان الاميركيين الذين يلعنون اميركا ، هم بالعكس ، وطنيون غيورون. انهم طلائع من طراز جديد بهم حمى ولكنها ليست حمى الذهب . وهم يبحثون عن قيم روحية. فليس يكفيهم ان تكون لهم بيوت عالية . وهم حين يهزأون بهذه البيوت ،

---

١ — LES PURITAINS

٢ — ٣ — اسماء فرق دينية انكليكانية متعصبة .

فليس لانهم يفضلون عليهـــا الاكواخ ، بل لانهم يريدون فوق ذلك ، افكاراً عالية ومشاعر عالية . لقد عرفت مثل هؤلاء الاميركيين ، واني لاتذكرهم ، وفي قلبي حب لهم ، واقول لنفسي وانا اذكرهم : « ان لنا في اميركا اصدقاء حقيقيين » .

الاميركيون يحبون الاستقامة . ولقد قلت ما سرني وما ساءني في اميركا ، دون مواربة « ان الملاطفة والمسايرة تكون للمرضى والشيوخ ، اما الاميركيون فلديهم من الشباب والصحة ما يفيض عنهم . ومن ثم ، فان لديهم من الطفيليين الاوروبيين من هم مستعدون لان يشتروا بالزلفى البنطلونات وعلب الكونسروة والادوات . ويحاول هؤلاء الطفيليون ان يقنعوا بعض الاوروبيين بوجود ما يسمونه « ثقافة اطلنتيكية » تربط كاتدرائية نوتردام بناطحـــات السحاب في نيويورك ، وتجمع بين دانتي و « العلكة » وبين القنبلة الذرية واحلام الفوريريين ١ . ولكن الثقافة غير قابلة للتقسيم الى منـاطق . فثمة ثقـافة انسانية تتخذ صيغاً مختلفة في البلاد المختلفة . وانا على يقين من ان الامة الاميركية ستتوصل الى خلق ثقافة عظيمة ، دون ان تجعل من ميزاتها الخاصة صندوقاً تقفله على نفسها ، ودون ان تقلد اوروبا تقليداً سعدانياً اعمى . ان لهذا الشعب الكفاية من الارادة ومن القوى المختزنة ، وانه ليستحق تاريخاً يليق به . .

•

اختارت الرسوم وعلقت عليها
دار القلم

١ ــ نسبة الى **FOURIER** فيلسوف فرنسي من دعاة الاشتراكية الخيالية .

مطبعة روطوس ــ بيروت

الطبعة الثانية
١٩٥٢/١٠

سلسلة حقيقة الـ « U. S. A. » المصورة

تصدر عن دار القلم – بناية العسيلي – بيروت

ص. ب. ٢٢٩٥

صدر منها :

U. S. A. بلاد الحريات المزيفة	فلاديمير بوزنر	١٠٠
U. S. A. كما شاهدتها	ايليا اهرنبورغ	١٠٠

تحت الطبع :

U. S. A. بلاد الانحراف الجنسي

تحت الاعداد :

U. S. A. ونضال الملونين لنيل الحرية

U. S. A. والى اين تسير باستعمارها

•

ما قيل في بلاد الحريات المزيفة

يقولون انني كاتب ساخر ولكن لم تبلغ بي السخرية حداً يجعلني اذهب الى الـ « U. S. A. » واشاهد تمثال الحرية على بابها .

برنارد شو

في الـ « U. S. A. » عدد كبير من المذاهب الدينية المرخص بها ، غير ان اكثر العبادات انتشاراً هي عبادة الدولار .

ايليا اهرنبورغ

ان الـ « U. S. A. » هي في الواقع ابعـــد ما تكون عن اللقب الذي يطلقونه عليها زوراً وبهتاناً وهو « بلد الحريات » .

جوزفين باكر